

تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ بِالْقُرْآنِ

مِنْ

أَضْوَاءِ الْبَيِّنَاتِ

تأليف

الشيخ العلامة محمد الأمين بن محمد المختار
ابن بكين الشنقيطي

إعداد

أ.د. سيد محمد ساداتي الشنقيطي
أستاذ الإعلام الإسلامي بكلية الدعوة
والإعلام بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

دار الهدى النبوي

مصر - المنصورة

دار الفضية

الرياض - السعودية

بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الزخرف

قوله تعالى: ﴿حَمَّ ۝ وَالْكِتَابِ الْمُمِينِ ۝ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ۝... الآية .
 قد قدّمنا الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور في أول سورة هود .
 وقوله تعالى ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ۝﴾؛ قد قدّمنا الكلام عليه في سورة الشعراء، في الكلام على قوله تعالى: ﴿لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ۝ يَلْسَانِي عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ۝﴾ [الشعراء]، وفي سورة الزمر، في الكلام على قوله تعالى: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ ۝﴾ الآية [الزمر: ٢٨] .
 قوله تعالى: ﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ۝﴾، الضمير في قوله «منهم» عائد إلى القوم المسرفين، المخاطبين بقوله: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ۝﴾، وفيه ما يسميه علماء البلاغة بالالتفات من الخطاب إلى الغيبة .
 وقوله: ﴿أَشَدَّ مِنْهُمْ ۝﴾؛ مفعول به لأهلكتنا، وأصله نعت لمحذوف، والتقدير: فأهلكتنا قوماً أشد منهم بطشاً، على حد قوله في الخلاصة:

وما من المنعوت والنعت عُقِلُ يجوز حذفه وفي النعت يَقِلُ

وقوله «بطشاً»: تمييز محول من الفاعل على حد قوله في الخلاصة:

والفاعل المعنى انصبين بأفعلاً مفضلاً كانت أعلا منزلاً

والبطش: أصله الأخذ بعنف وشدة .

والمعنى: فأهلكتنا قوماً أشد بطشاً من كفار مكة الذين كذبوا نبينا بسبب تكذيبهم رسلهم، فليحذر الكفار الذين كذبوك أن يهلكهم بسبب ذلك كما أهلكتنا الذين كانوا أشد منهم بطشاً؛ أي أكثر منهم عدداً وعدداً وجلداً .
 فعلى الأضعف الأقل أن يتعظ بإهلاك الأقوى الأكثر .

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ۝﴾؛ أي صفتهم التي هي إهلاكهم المستأصل، بسبب تكذيبهم الرسل .

وقول من قال: ﴿مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ۝﴾؛ أي عقوبتهم وستهم راجع في المعنى إلى ذلك .

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من تهديد الكفار الذين كذبوا محمداً ﷺ بأن الله أهلك من هم أقوى منهم، ليحذروا أن يفعل بهم مثل ما فعل بأولئك، جاء موضحاً في آيات آخر كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ

كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا... الآية [الروم: ٩].
 وقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَأَثَارًا فِي الْأَرْضِ... الآية [غافر: ٨٢]. وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنْتَهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ يُمْكِنْ لَّكُمُ الْوَسْطَانُ الْأَسْمَاءُ عَلَيْهِمْ يَدْرَأَ﴾
 إلى قوله: ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِدُونِهِمْ... الآية [الأنعام: ٦]. وقوله تعالى: ﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَّغُوا مَعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ [سبأ]. وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٦﴾ [فاطر].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَمَضَىٰ مِثْلَ الْأَوَّلِينَ﴾؛ ما تضمنته هذه الآية الكريمة من تهديد كفار مكة الذين كذبوا محمداً ﷺ، بصفة إهلاكهم وسنته فيهم التي هي العقوبة وعذاب الاستئصال، جاء موضحاً في آيات أخر كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ اسْتَكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن يَحْدِ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن يَحْدِ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ [فاطر].
 وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَافَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَمَا كُنَّا بِهِ مُمْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسًا سُنَّتِ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾ [غافر]. وقوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَن تَأْتِيهِمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ الآية [الكهف: ٥٥]. وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ءَاسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴿٥٦﴾ [الزخرف].

وقد قدمنا بعض الآيات الدالة على هذا في سورة المائدة في الكلام على قوله تعالى: ﴿مِن أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ... الآية [المائدة: ٣٢].

قوله تعالى: ﴿وَلَيْن سَأَلْنَهُمْ مَّن خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٩١﴾. وقد قدمنا الآيات الموضحة له بكثرة في سورة بني إسرائيل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

قوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُم فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠١﴾. قرأ هذا الحرف، عاصم وحمزة والكسائي ﴿مَهْدًا﴾؛ بفتح الميم وسكون الهاء وقرأه باقي السبعة ﴿بِهْدًا﴾؛ بكسر الميم وفتح الهاء بعدها ألف، ومعناها واحد وهو الفراش.

وقد ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة، أنه جعل الأرض لبني آدم مهدياً أي فراشاً، وأنه جعل لهم فيها سبلاً أي طرقاً ليمشوا فيها ويسلكوها، فيصلوا بها من قطر إلى قطر. وهذان الأمران اللذان تضمنتهما هذه الآية الكريمة، من كونه تعالى جعل

الأرض فراشاً لبني آدم وجعل لهم فيها الطرق لينفذوا من قطر إلى قطر، جاء موضحاً في غير هذا الموضع، كقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١١﴾ لِيَسْلَكُوا مِنْهَا سُبُلًا فَجَاجًا ﴿١٢﴾﴾ [نوح]، وكقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الأنبياء].

وذكر كون الأرض فراشاً لبني آدم في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضُ فَرَشْتَهَا فَنِعْمَ الْمَبْهُدُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الذاريات]. وقوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ ﴿١٥﴾﴾ [البقرة: ٢٢]. وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً ﴿١٦﴾﴾ . . . الآية [غافر: ٦٤].

وقد قدّمنا الآيات الموضحة لهذا في سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٧﴾﴾ [النحل].

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدِرُ فَأَنْزَلْنَا بِهِ بَلَدَهُ مَيِّتًا كَذَلِكَ نُخْرِجُوهُمْ ﴿١٨﴾﴾. ما تضمنته هذه الآية الكريمة من دلالة إحياء الأرض بعد موتها على خروج الناس من قبورهم أحياء بعد الموت، في قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ نُخْرِجُوهُمْ ﴿١٩﴾﴾؛ جاء موضحاً في آيات كثيرة قد قدّمناها في سورة البقرة في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ ﴿٢٠﴾﴾ [البقرة: ٢٢]، مع بقية براهين البعث في القرآن. وأوضحنا ذلك أيضاً في سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [النحل]، وفي غير ذلك من المواضع، وأحلنا على ذلك مراراً كثيرة في هذا الكتاب المبارك.

وقد قدّمنا في سورة الفرقان، معنى الإنشاء والنشور، وما في ذلك من اللغات مع الشواهد العربية.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة. ﴿يَقْدِرُ﴾. قال بعض العلماء: أي بقدر سابق وقضاء. وقال بعض العلماء: أي بمقدار يكون به إصلاح البشر فلم يكثر الماء جداً فيكون طوفاناً فيهلكهم، ولم يجعله قليلاً دون قدر الكفاية، بل نزله بقدر الكفاية من غير مضرة، كما قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدِرُ فَأَسْكَنَتْهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المؤمنون]. وقال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدْرِ مَعْلُومٍ ﴿٢٣﴾﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ [الحجر: ٢١ - ٢٢].

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا ﴿٢٤﴾﴾. والأزواج: الأصناف، والزوج تطلقه العرب على الصنف.

وقد بين تعالى أن الأزواج المذكورة هنا تشمل أصناف النبات وبني آدم وما لا يعلمه إلا الله، قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [يس]، وقال تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْ نَّبَاتٍ شَتَّى ﴿٢٦﴾﴾ [طه: ٥٣].

وقال تعالى: ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ بِهِيجٌ﴾ [الحج: ٥]، أي من كل صنف حسن من أصناف النبات.

وقال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ رَوْحٍ كَرِيمٍ﴾ [القمان: ١٠].
ومن إطلاق الأزواج على الأصناف في القرآن قوله تعالى: ﴿وَأَخْرَجَ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجًا﴾ [ص: ١].
وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾ [طه: ١٣١].

وقد قدمنا طرفاً من ذلك في سورة الصفات، في الكلام على قوله تعالى: ﴿أَخْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ الآية [الصفات: ٢٢].

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفَلَكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ ﴿٧٧﴾ لِيَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾.

قد قدمنا الآيات الموضحة له بكثرة في سورة المؤمن، في الكلام على قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لِيَتْرَكِبُوا مِنْهَا﴾ الآية [غافر: ٧٩]. وضمير المفرد المذكر الغائب في قوله: ﴿لِيَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ﴾، وقوله: ﴿إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ راجع إلى لفظ «ما» في قوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفَلَكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِبِينَ﴾. يعني - جلّ وعلا - أنه جعل لبني آدم ما يركبونه من الفلك التي هي السفن، ومن الأنعام ليستوا أي يرتفعوا معتدلين على ظهوره، ثم يذكروا في قلوبهم نعمة ربهم عليهم بتلك المركوبات ثم يقولوا بألسنتهم مع تفهم معنى ما يقولون: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِبِينَ﴾.

وقوله: «سبحان» قد قدمنا في أول سورة بني إسرائيل معناه بوضوح، وأنه يدل على تنزيه الله - جلّ وعلا - أكمل التنزيه وأتمه عن كل ما لا يليق بكماله وجلاله. والإشارة في قوله ﴿هَذَا﴾ راجعة إلى لفظ ﴿مَا﴾ من قوله: ﴿مَا تَرْكَبُونَ﴾ وجمع الظهور نظراً إلى معنى ﴿مَا﴾؛ لأن معناها عام شامل لكل ما تشمله صلتها ولفظها مفرد، فالجمع في الآية باعتبار معناها، والإفراد باعتبار لفظها.

وقوله: ﴿الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا﴾؛ أي الذي ذلل لنا هذا الذي هو ما نركبه من الأنعام والسفن؛ لأن الأنعام لو لم يذلها الله لهم لما قدروا عليها ولا يخفى أن الجمل أقوى من الرجل، وكذلك البحر لو لم يذله ويسخر لهم إجراء السفن فيه لما قدروا على شيء من ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِبِينَ﴾؛ أي مطيقين. والعرب تقول: أقرن الرجل للأمر وأقرنه إذا كان مطيقاً له كفؤاً للقيام به، من قولهم: أقرنت الدابة للدابة، بمعنى أنك إذا قرنتهما في حبل قدرت على مقاومتها، ولم تكن أضعف منها فتجرها؛ لأن الضعيف إذا لزم في القرن، أي الحبل، مع القوي جره ولم يقدر على مقاومته، كما قال جرير:

وابن اللبون إذا ما لز في قرن لم يستطع صولة البزل القناعيس
وهذا المعنى: معروف في كلام العرب، ومنه قول عمر بن معد يكرب وقد أشده
قطرب لهذا المعنى:

لقد علم القبائل ما عقيل لنا في النائبات بمقرنيننا
وقول ابن هرمة:

وأقرنت ما حملتني ولقلما يطاق احتمال الصدياد عدو الهجر
وقول الآخر:

ركبتم صعبتني أشراً وحيفاً ولستم للصعاب بمقرنيننا

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن ما ذكر من السفن والأنعام لو لم يذله الله
لما أقرنوا له ولما أطاقوه جاء مبيناً في آيات أخر. قال تعالى في ركوب الفلك: ﴿وَأَيُّ
لَهُمْ أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفَلَكِ الْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [يس]. وقال
تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ الآية [النحل: ١٤]. وقال
تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفَلَكَ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَيَبْغُوا مِنْ فَضْلِهِ...﴾ الآية
[الجاثية: ١٢]. وقال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفَلَكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ
الْأَنْهَارَ﴾ [إبراهيم: ٣٢]. الآية، وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ
وَالنَّهَارِ وَالْفَلَكَ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ...﴾ الآية [البقرة: ١٦٤]. وقال تعالى:
﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفَلَكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ
عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ الآية [الحج: ٦٥]، والآيات بمثل ذلك كثيرة.

وقال تعالى في تسخير الأنعام: ﴿وَدَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ [يس].
وقال تعالى: ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعَمُوا الْقَانِعَ وَالْمَعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ
تَشْكُرُونَ﴾ [٣٦] لَنْ يَبَالَ اللَّهُ لِحُومِهَا وَلَا دِمَائِهَا وَلَكِنْ يَبَالُهُ النَّفْسِيُّ مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ
لِتَشْكُرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَيُدْشِرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الحج: ٣٧] إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾. قال بعض العلماء ﴿جُزْءًا﴾ أي عدلاً
ونظيراً، يعني الأصنام وغيرها من المعبودات من دون الله، وقال بعض العلماء:
﴿جُزْءًا﴾ أي ولدًا، وقال بعض العلماء: ﴿جُزْءًا﴾ يعني البنات.

وذكر ابن كثير في تفسير هذه الآية: أن الجزء النصيب، واستشهد على ذلك بآية
الأنعام. أعني قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا
هَذَا لِلَّهِ بِرَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا﴾ [الأنعام: ١٣٦]... الآية.

قال مقيد - عفا الله عنه وغفر له -: الذي يظهر أن قول ابن كثير هذا بكلامه غير
صواب في الآية؛ لأنَّ المَجْعُولُ لله في آية الأنعام، هو النصيب مما ذرأ من الحرث

والأنعام، والمجعول له في آية الزخرف هذه، جزء من عباده لا مما ذرأ من الحرث والأنعام. وبين الأمرين فرق واضح كما ترى.

وأنّ قول قتادة ومن وافقه: إن المراد بالجزء العدل والنظير الذي هو الشريك غير صواب أيضاً؛ لأنّ إطلاق الجزء على النظير ليس بمعروف في كلام العرب.

أما كون المراد بالجزء في الآية الولد، وكون المراد بالولد خصوص الإناث، فهذا هو التحقيق في الآية. وإطلاق الجزء على الولد يوجه بأمرين:

أحدهما: ما ذكره بعض علماء العربية من أن العرب تطلق الجزء مراداً به البنات، ويقولون: أجزأت المرأة إذا ولدت البنات، وامرأة مجزئة أي تلد البنات، قالوا: ومنه قول الشاعر:

إنّ ما أجزأت حرة يوماً فلا عجب قد تجزئ الحرة المذكار أحيانا
وقول الآخر:

زوجتها من بنات الأوس مجزئة للعوسج اللدن في أبياتها زجل
وأنكر الزمخشري هذه اللغة قائلاً إنها كذب وافتراء على العرب.

قال في الكشاف في الكلام على هذه الآية الكريمة: ومن بدع التفاسير، تفسير الجزء بالإناث وادعاء أن الجزء في لغة العرب اسم للإناث، وما هو إلا كذب على العرب ووضع مستحدث منحول ولم يقنعهم ذلك حتى اشتقوا منه أجزأت المرأة ثم صنعوا بيتاً وبيتاً.

إنّ ما أجزأت حرة يوماً فلا عجب زوجتها من بنات الأوس مجزئة
وقال ابن منظور في اللسان: وفي التنزيل العزيز: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾. قال أبو إسحاق: يعني به الذين جعلوا الملائكة بنات الله تعالى وتقدس عما افتروا، قال: وقد أنشدت بيتاً يدل على أن معنى جزءاً معنى الإناث قال: ولا أدري البيت هو قديم أم مصنوع؟

إن أجزأت حرة يوماً فلا عجب

والمعنى في قوله: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾؛ أي جعلوا نصيب الله من الولد الإناث، قال: ولم أجده في شعر قديم ولا رواه عن العرب الثقات، وأجزأت المرأة: ولدت الإناث، وأنشد أبو حنيفة:

زوجتها من بنات الأوس مجزئة

انتهى الغرض من كلام صاحب اللسان، وظاهر كلامه هذا الذي نقله عن الزجاج أن قولهم: أجزأت المرأة؛ إذا ولدت الإناث معروف؛ ولذا ذكره وذكر البيت الذي أنشده له أبو حنيفة كالمسلم له.

والوجه الثاني: وهو التحقيق - إن شاء الله -؛ أن المراد بالجزء في الآية الولد، وأنه أطلق عليه اسم الجزء؛ لأن الفرع كأنه جزء من أصله، والولد كأنه بضعة من الوالد كما لا يخفى.

وأما كون المراد بالولد المعبر عنه بالجزء في الآية خصوص الإناث فقريته السياق دالة عليه دلالة واضحة؛ لأن جعل الجزء المذكور لله من عباده هو بعينه الذي أنكره الله إنكاراً شديداً وقرع مرتكبه تقريباً شديداً في قوله تعالى بعده ﴿ **أَمْ أَخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَنَكُمْ بِالْبَنِينَ** ﴾ (١٦) **وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوِداً** . إلی قوله: ﴿ **وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ** ﴾ .

وقرأ هذا الحرف شعبة عن عاصم: ﴿ **جُزْءاً** ﴾ بضم الزاي وباقي السبعة بإسكانها وحمزة عند الوقف يسقط الهمزة، بنقل حركتها إلى الزاي مع حذف التنوين للوقف.

قوله تعالى: ﴿ **أَمْ أَخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَنَكُمْ بِالْبَنِينَ** ﴾ (١٦) . «أم» هنا بمعنى استفهام الإنكار، فالكفار لما قالوا: الملائكة بنات الله، أنكر الله عليهم أشد الإنكار، موبخاً لهم أشد التوبيخ، حيث افتروا عليه الولد، ثم جعلوا له أنقص الولدين وأحقرهما وهو الأنثى، كما قال هنا: ﴿ **أَمْ أَخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ** ﴾؛ وهي النصيب الأدنى من الأولاد، وأصفاكم أنتم، أي خصكم وأثركم بالبنين الذين هم النصيب الأعلى من الأولاد.

وإنكار هذا عليهم وتوبيخهم عليه جاء موضعاً في آيات كثيرة كقوله هنا: ﴿ **وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلاً** ﴾؛ يعني الأنثى، كما أوضحه بقوله: ﴿ **وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوِداً وَهُوَ كَظِيمٌ** ﴾ [النحل: ٥٨]، يعني: فكيف تجعلون لله الإناث وأنتم لو بشر الواحد منكم بأن امرأته ولدت أنثى لظل وجهه مسوداً؛ يعني من الكآبة وهو كظيم؛ أي ممتلئ حزناً وغماً، وكقوله تعالى هنا: ﴿ **أَوْ مِنْ يُسْتَوُوا فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ** ﴾ (١٧)؛ ففيه إنكار شديد وتقريع عظيم لهم بأنهم مع افتراءهم عليه - جلّ وعلا - الولد جعلوا له أنقص الولدين الذي لنقصه الخلقي، ينشأ في الحلية من الحلي والحلل وأنواع الزينة، من صغره إلى كبره ليجبر بتلك الزينة نقصه الخلقي الطبيعي، وهو في الخصام غير مبين؛ لأن الأنثى غالباً لا تقدر على القيام بحجتها ولا الدفاع عن نفسها.

وقد أوضحنا هذا المعنى بشواهد العربية غاية الإيضاح في سورة بني إسرائيل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ** ﴾ [الإسراء: ٩]. وكقوله تعالى: ﴿ **وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ** ﴾ [النحل: ٥٧]. وقوله تعالى: ﴿ **وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ** ﴾ [النحل: ٦٢]. وقوله تعالى: ﴿ **أَفَأَصْفَنكُمْ رَبِّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنْ أَلْمَلَكَةِ إِنْتًا إِنَّكُمْ لَقَائِلُونَ فَوَلَا عَظِيمًا** ﴾ [الإسراء: ٤٠]. وقوله تعالى ﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْأُنْثَىٰ تَكُ إِذَا سَمِعَتْ ضَيْقًا** ﴾ [النجم: ٢٢]. وقوله تعالى: ﴿ **فَأَسْتَفْتِيهِمْ لَرَيْكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمْ الْبَنُونَ** ﴾ (١٨) **أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنْتًا وَهُمْ شَاهِدُونَ** ﴾ (١٩) **أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إَفْكِهِمْ يَقُولُونَ** ﴾ (٢٠)

وَلَدَ اللَّهُ وَإِيَّاهُمْ لَكَذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأَتُوا بِكِنْيَتِكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥٧﴾ ﴿[الصفات].

وقد قدّمنا كثيراً من الآيات الموضحة لهذا المعنى في سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [النحل].

ووجه التعبير عن الأنثى بما ضرب مثلاً لله في قوله: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا... الآية، ظاهره؛ لأن البنات المزعومة يلزم ادعاءها أن تكون من جنس من نسبت إليه؛ لأن الوالد والولد من جنس واحد، وكلاهما يشبه الآخر في صفاته.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِنْدَ الرَّحْمَنِ إِنثًا أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْتَلُونَ ﴿١٦١﴾﴾. قرأ هذا الحرف نافع وابن كثير وابن عامر: ﴿عِنْدَ الرَّحْمَنِ﴾؛ بسكون النون وفتح الدال ظرف كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾؛ [الأعراف: ٢٠٦]، وقرأه أبو عمرو وعاصم وحزمة والكسائي ﴿الَّذِينَ هُمْ عِنْدَ الرَّحْمَنِ﴾ بكسر العين وياء موحدة بعدها ألف وضم الدال جمع عبد كقوله: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ﴾ [الفرقان: ٦٣].

وقوله: ﴿أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ﴾؛ قرأه عامة السبعة غير نافع «أشهدوا» بهمزة واحدة مع فتح الشين، وقرأه نافع «أشهد»: بهمزتين الأولى مفتوحة محققة، والثانية مضمومة مسهلة بين بين، وقالون: يجعل بين الهمزتين ألف الإدخال على إحدى الروايتين.

وقد ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أربع مسائل:

الأولى: أن الكفار افتروا على الملائكة أنهم إناث، زاعمين أنهم بنات الله.

الثانية: أنه وبخهم على ذلك توبيخاً شديداً وأنكر عليهم ذلك في قوله: ﴿أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ﴾ يعني هل حضروا خلق الله لهم فعابنوهم إناثاً.

الثالثة: أن شهادتهم الكاذبة بذلك ستكتب عليهم.

الرابعة: أنهم يسألون عنها يوم القيامة.

وهذه المسائل الأربع التي تضمنتها هذه الآية الكريمة، جاءت موضحة في غير هذا الموضع.

أما الأولى منها وهي كونهم اعتقدوا الملائكة إناثاً، فقد ذكرها تعالى في مواضع من كتابه كقوله تعالى: ﴿أَفَأَصْفِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنثًا إِنَّكُمْ لَنَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٦١﴾﴾ [الإسراء]. وكقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَى ﴿٦٧﴾﴾... الآية [النجم]، وقوله تعالى: ﴿فَأَسْتَفْتِيهِمْ أَرَأَيْكَ الْبَنَاتُ وَلَهُنَّ الْبُسُوتُ ﴿٦٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنثًا... الآية [الصفات: ١٤٩، ١٥٠]، إلى غير ذلك من الآيات.

وأما المسألة الثانية، وهي سؤاله تعالى لهم على وجه الإنكار والتوبيخ والتقريع هل شهدوا خلق الملائكة وحضروه، حتى علموا أنهم خلقوا إناثاً، فقد ذكرها في قوله تعالى:

﴿أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنْدًا وَهُمْ شَاهِدُونَ﴾ [الصفوات: ٥١]؛ وبين تعالى أنه لم يشهد الكفار خلق شيء في قوله: ﴿مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسِهِمْ﴾ [الكهف: ٥١].

وأما المسألة الثالثة التي هي كون شهادتهم بذلك الكفر ستكتب عليهم، فقد ذكرها تعالى في مواضع من كتابه كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ ﴿١٦﴾ كِرَامًا كَثِيرِينَ ﴿١٧﴾ يَتْلُونَ مَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الانفطار]، وقوله تعالى: ﴿هَذَا كِتَابُنَا يُطَّوِّعُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الجاثية]، وقوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلًا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٢٠﴾﴾، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا نَمَكُرُونَ﴾ [يونس: ٢١] وقوله تعالى: ﴿وَكُلِّ إِنْسَانٍ أَلَمِنَهُ طَيْرٌ فِي عُنُقِهِ وَنُحِرَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا ﴿٢٢﴾﴾ [الأنبياء: ٢٣]، وقوله تعالى: ﴿سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا﴾ [مريم: ٧٩].

وأما المسألة الرابعة وهي كونهم يسألون عن ذلك الافتراء والكفر، فقد ذكرها تعالى في آيات من كتابه كقوله تعالى: ﴿وَلِيَحْمِلُوا أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيَسْئَلَنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٣﴾﴾ [العنكبوت]، وقوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْتَلِفُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤﴾﴾ [الحجر]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴿١٥﴾﴾، وقوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْمَلُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَالِهًا لَّسْتَلْنَ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْعَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [النحل] إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

في هذه الآية الكريمة إشكال معروف، ووجهه أن قول الكفار الذي ذكره الله عنهم هنا، أعني قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾، وهو بالنظر إلى ظاهره كلام صحيح؛ لأن الله لو شاء أن لا يعبدوهم ما عبدوهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا﴾ [الأنعام: ١٠٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى﴾ [السجدة: ١٣]، وقال تعالى: ﴿فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩].

وهذا الإشكال المذكور في آية الزخرف هو بعينه واقع في آية الأنعام، وآية النحل. وأما آية الأنعام فهي قوله: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاءُؤُنَا وَلَا حَرَمًا مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨].

وأما في آية النحل، فهي قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا﴾... الآية [النحل: ٣٥].

فإذا عرفت أن ظاهر آية الزخرف وآية الأنعام، وآية النحل أن ما قاله الكفار حق، وأن الله لو شاء ما عبدوا من دونه من شيء ولا أشركوا به شيئاً، كما ذكرنا في الآيات الموضحة قريباً.

فاعلم أن وجه الإشكال أن الله صرح بكذبهم في هذه الدعوى التي ظاهرها حق، قال في آية الزخرف: ﴿مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾؛ أي يكذبون، وقال في آية الأنعام: ﴿كَذَلِكَ كَذَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، وقال في آية النحل: ﴿كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ الْمُبِينُ﴾ [النحل: ٣٥].

ومعلوم أن الذي فعله الذين من قبلهم، هو الكفر بالله والكذب على الله، في جعل الشركاء له وأنه حرم ما لم يحرمه.

والجواب عن هذا أن مراد الكفار بقولهم: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨]، مرادهم به أن الله لما كان قادراً على منعهم من الشرك، وهدايتهم إلى الإيمان ولم يمنعهم من الشرك. دل ذلك على أنه راضٍ منهم بالشرك في زعمهم.

قالوا: لأنه لو لم يكن راضياً به، لصرفنا عنه، فتكذيب الله لهم في الآيات المذكورة منصب على دعواهم أنه راضٍ به، والله - جلّ وعلا - يكذب هذه الدعوى في الآيات المذكورة وفي قوله: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧].

فالكفار زعموا أن الإرادة الكونية القدرية، تستلزم الرضا وهو زعم باطل، وهو الذي كذبهم الله فيه في الآيات المذكورة.

وقد أشار تعالى إلى هذه الآيات المذكورة، حيث قال في آية الزخرف: ﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ﴾؛ أي آتيناهم كتاباً يدل على أنا راضون منهم بذلك الكفر، ثم أضرب عن هذا إضراب إبطال مبيناً أن مستندهم في تلك الدعوى الكاذبة هو تقليد آبائهم التقليد الأعمى، وذلك في قوله: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ أي شريعة وملة وهي الكفر وعبادة الأوثان ﴿وإِنَّا عَلَىٰ عَائِدِهِمْ مُهْتَدُونَ﴾.

فقوله عنهم مهتدون هو مصب التكذيب؛ لأن الله إنما يرضى بالاهتداء لا بالضلال. فالاهتداء المزعوم أساسه تقليد الآباء الأعمى، وسيأتي إيضاح رده عليهم قريباً - إن شاء الله -.

وقال تعالى في آية النحل، بعد ذكره دعواهم المذكورة: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَىٰ اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ [النحل: ٣٦].

فأوضح في هذه الآية الكريمة أنه لم يكن راضياً بكفرهم، وأنه بعث في كل أمة رسولاً، وأمرهم على لسانه أن يعبدوا الله وحده ويجتنبوا الطاغوت، أي يتباعدوا عن عبادة كل معبود سواه.

وأن الله هدى بعضهم إلى عبادته وحده، وأن بعضهم حقت عليه الضلالة؛ أي ثبت عليه الكفر والشقاء.

وقال تعالى في آية الأنعام: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿١٤٩﴾ يعني فمن الهدىناه وتفضلنا عليه بالتوفيق، فهو فضل منا ورحمة. ومن لم نفعله له ذلك فهو عدل منا وحكمة؛ لأنه لم يكن له ذلك ديناً علينا ولا واجباً مستحقاً يستحقه علينا، بل إن أعطينا ذلك ففضل، وإن لم نعطه فعدل.

وحاصل هذا أن الله تبارك وتعالى قدر مقادير الخلق قبل أن يخلق الخلق، وعلم أن قوماً صائرون إلى الشقاء وقوماً صائرون إلى السعادة ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧]. وأقام الحجة على الجميع ببعث الرسل وتأيدهم بالمعجزات التي لا تترك في الحق لبساً، فقامت عليهم حجة الله في أرضه بذلك.

ثم إنه تعالى وفق من شاء توفيقه، ولم يوفق من سبق لهم في علمه الشقاء الأزلي، وخلق لكل واحد منهم قدرة وإرادة يقدر بها على تحصيل الخير والشر، وصرف قدرهم وإرادتهم بقدرته وإرادته إلى ما سبق لهم في علمه، من أعمال الخير المستوجبة للسعادة وأعمال الشر المستوجبة للشقاء، فأتوا كل ما أتوا وفعلوا كل ما فعلوا، طائعين مختارين، غير مجبورين، ولا مقهورين ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠]، ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿١٤٩﴾ [الأنعام].

وقد رد الشيخ مذهب الجبرية عند هذه الآية فليرجع من أراد الوقوف عليه للأصل. قوله تعالى: ﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ ﴿١٦١﴾. «أم» هنا تتضمن معنى استفهام الإنكار؛ يعني - جلّ وعلا - أنّ هذا الذي يزعم الكفار من أنّهم على حق في عبادتهم الأوثان، وجعلهم الملائكة بنات الله، لا دليل لهم عليه، ولذا أنكر أن يكون آتاهم كتاباً يحل فيه ذلك وأن يكونوا مستمسكين في ذلك بكتاب من الله، فأنكر عليهم هذا هنا إنكاراً دالاً على النفي للتمسك بالكتاب المذكور، مع التوبيخ والتفريع.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن كفرهم المذكور لم يكن عن هدى من الله، ولا كتاب أنزله الله بذلك، جاء موضحاً في آيات كثيرة كقوله تعالى في سورة فاطر: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ نَدَّعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّنْهُ﴾ ... الآية [فاطر: ٤٠].

وقوله تعالى في الأحقاف: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا نَدَّعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَتُنُونِ بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَتُرُونَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿٤٤﴾ [الأحقاف].

وقوله تعالى في الروم: ﴿أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَكَفِّرُ بِنَاكُمْ بِمَا كَانُوا بِهِ يَشْرِكُونَ﴾ ﴿٢٥﴾ [الروم].

وقوله تعالى في الصافات: ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ﴾ ﴿١٥٦﴾ فَأَنْتُمْ بِكَيْدِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥٧﴾ [الصافات].

وقوله تعالى في النمل: ﴿أَمَّن يَدُّوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَيْلَهُمْ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَكَأُو بُرْهَنَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [النمل].

وقوله تعالى في الحج ولقمان: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ ﴿٨﴾﴾ [الحج].

وقوله تعالى في الأنعام: ﴿قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٨].

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ قُلْ أَوْلُوا جِئْتُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ ﴿٢٤﴾﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة قد أفلح المؤمنون، في الكلام على قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا كُلٌّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ﴾ . . . الآية [المؤمنون: ٤٤].

وفي سورة الأنعام، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مُجْرِمِيهَا﴾ [الأنعام: ١٢٣].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَوْلُوا جِئْتُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ﴾، قرأه نافع وابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي وشعبة عن عاصم: «قُلْ أَوْ لَوْ جِئْتُمْ» بضم القاف وسكون اللام بصيغة الأمر.

وقراه ابن عامر وحفص عن عاصم: ﴿قُلْ أَوْلُوا جِئْتُمْ﴾؛ بفتح القاف واللام بينهما ألف بصيغة الفعل الماضي.

فعلى قراءة الجمهور فالمعنى قل لهم يا نبي الله أتقتدون بأبائكم في الكفر والضلال، ولو جئتم بأهدى، أي بدين أهدى مما وجدتم عليه آباءكم، وصيغة التفضيل هنا لمطلق الوصف؛ لأن آباءهم لا شيء عندهم من الهداية أصلاً.

وعلى قراءة ابن عامر وحفص، فالمعنى قال هو: أي رسول الله ﷺ.

وقد أوضحنا هذا المعنى بشواهد العربية مراراً في هذا الكتاب المبارك.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من تسفيه رأي الكفار وبيان شدة ضلالهم في تقليدهم آباءهم هذا التقليد الأعمى، جاء موضحاً في آيات كثيرة كقوله تعالى في البقرة:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْلُوا كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [البقرة]. وكقوله تعالى في المائدة: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ

تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَىٰ الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْلُوا كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٤﴾﴾ [المائدة].

وأوضح تعالى في آية لقمان أن ما وجدوا عليه آباءهم من الكفر والضلال طريق من طرق الشيطان يدعوهم بسلوكها إلى عذاب السعير، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ

لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَنْبَغُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَّلُوا كَمَا الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَدَابِ السَّعِيرِ ﴿٢٦﴾ [القمان]. كقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَاؤُا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ﴿١٦﴾ فَهُمْ عَلَىٰ آثَرِهِمْ يُرْغَبُونَ ﴿١٧﴾﴾ [الصفات]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾﴾ [الأنبياء]، والآيات بمثل ذلك كثيرة.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٦٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيِّدِي ﴿٦٧﴾﴾. ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أن إبراهيم - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - قال لأبيه وقومه: إنه براء أي بريء، من جميع معبوداتهم التي يعبدونها من دون الله، أي يعني أنه بريء من عبادة كل معبود، إلا المعبود الذي خلقه وأوجده فهو وحده معبوده.

وقد أوضح تعالى هذا المعنى الذي ذكره عن إبراهيم في مواضع آخر من كتابه كقوله تعالى: ﴿قَالَ أَفَرَأَيْتَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٥٥﴾ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٧﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٥٨﴾﴾ [الشعراء]. وكقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَى السَّمَاسَ بَارِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يُغْوِيهِ لِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنعام].

وزاد - جلّ وعلا - في سورة الممتحنة براءته أيضاً من العابدين وعداوته لهم وبغضه لهم في الله، وذلك في قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِنُؤْمِنُ بِهِ إِنَّا بَرِءُوا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ﴾ [الممتحنة: ٤].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَإِنَّهُمْ سَيِّدِينَ﴾؛ ذكر نحوه في قوله: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾﴾ [الشعراء]. وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيِّدِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصفات]. وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَفَلَّ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الأنعام].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿إِنِّي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٦٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾؛ أي خلقتني، يدل على أنه لا يستحق العبادة، إلا الخالق وحده - جلّ وعلا - .

وهذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة، دلت عليه آيات أخر من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: ٢١]، وقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْحَيَاةَ الْأُولَىٰ ﴿١٨٦﴾﴾ [الشعراء]. وقوله تعالى: ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقَ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَّاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الرعد: ١٦]. وقوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ الآية [النحل: ١٧]، وقوله تعالى: ﴿أَبَشْرُكُونَ مَا لَّا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٦١﴾﴾ [الأعراف]. وقوله تعالى: ﴿الَّذِي لَمْ يَكُن لَّهُ مَلَكٌ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَخْجَدْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمَلِكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ مَقْدِيرًا ﴿٢٠٠﴾ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [الفرقان: ٢، ٣]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَذَا وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٠﴾ .

الضمير المنصوب في «جعلها» على التحقيق راجع إلى كلمة الإيمان المشتملة على معنى لا إله إلا الله، المذكورة في قوله: ﴿إِنِّي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾؛ لأن لا إله إلا الله نفي وإثبات، فمعنى النفي منها هو البراءة من جميع المعبودات غير الله في جميع أنواع العبادات، وهذا المعنى جاء موضحاً في قوله: ﴿إِنِّي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ .

ومعنى الإثبات منها هو إفراد الله وحده بجميع أنواع العبادات على الوجه الذي شرعه على ألسنة رسله. وهذا المعنى جاء موضحاً في قوله: ﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيِّدُنِي ﴿٢٧﴾﴾ .
وضمير الفاعل المستتر في قوله ﴿وَجَعَلَهَا﴾ قال بعضهم: هو راجع إلى إبراهيم، وهو ظاهر السياق. وقال بعضهم: هو راجع إلى الله تعالى.

فعلى القول الأول فالمعنى صير إبراهيم تلك الكلمة باقية في عقبه؛ أي ولده وولد ولده. وإنما جعلها إبراهيم باقية فيهم لأنه تسبب لذلك بأمرين:

أحدهما: وصيته لأولاده بذلك وصاروا يتوارثون الوصية بذلك عنه، فيوصي به السلف منهم الخلف، كما أشار تعالى إلى ذلك بقوله: ﴿وَمَنْ يَرْعُبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٢٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٦﴾ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يٰبَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمْ

الَّذِينَ ﴿١٢٧﴾ . . . الآية [البقرة: ١٣٠ - ١٣٢].

وثانيهما: هو سؤاله ربه تعالى لذريته الإيمان والصلاح؛ كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَيْنَهُ فَاذْنَبَهُمْ قَالِ إِنِّي جَاعِلٌ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالِ وَمِن ذُرِّيَّتِي ﴿١٢٤﴾﴾ [البقرة: ١٢٤]، أي واجعل من ذريتي أيضاً أئمة، وقوله تعالى عنه: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي ﴿١٢٥﴾﴾ [إبراهيم: ٤٠]. وقوله عنه: ﴿وَأَجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴿١٢٦﴾﴾ [إبراهيم: ٣٥]. وقوله عنه هو وإسماعيل: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ ﴿١٢٧﴾﴾ إلى قوله: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ﴿١٢٨﴾﴾ [البقرة: ١٢٩].

وقد أجاب الله دعاءه في بعث الرسول المذكور ببعثه محمداً ﷺ؛ ولذا جاء في الحديث عنه ﷺ أنه قال: «أنا دعوة إبراهيم».

وقد جعل الله الأنبياء بعد إبراهيم من ذريته، كما قال تعالى في سورة العنكبوت: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ﴿٢٧﴾﴾ [العنكبوت: ٢٧]، وقال عنه وعن نوح في سورة الحديد: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ﴿٢٦﴾﴾ . . . الآية [الحديد: ٢٦].

وعلى القول الثاني، أن الضمير عائد إلى الله تعالى، فلا إشكال.

وقد بيّن تعالى في آية الزخرف هذه؛ أنّ الله لم يجب دعوة إبراهيم في جميع ذريته، ولم يجعل الكلمة باقية في جميع عقبه؛ لأن كفار مكة الذين كذبوا نبينا ﷺ من عقبه بإجماع العلماء، وقد كذبوه ﷺ وقالوا إنه ساحر. وكثير منهم مات على ذلك، وذلك في قوله تعالى: ﴿بَلْ مَنَّتْ هَؤُلَاءِ﴾؛ يعني كفار مكة وآباءهم حتى جاءهم الحق ورسول مبين، هو محمد ﷺ ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

وما دلت عليه آية الزخرف هذه من أن بعض عقب إبراهيم لم يجعل الله الكلمة المذكورة باقية فيهم، دلت عليه آيات أخر من كتاب الله كقوله تعالى في البقرة: ﴿قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤]، أي الظالمين من ذرية إبراهيم. وقوله تعالى في الصفات: ﴿وَبَرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾ ﴿١١٣﴾ [الصفات].

فالمحسن منهم هو الذي الكلمة باقية فيه، والظالم لنفسه المبين منهم ليس كذلك. وقوله تعالى في النساء: ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٥﴾ فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٦﴾﴾ [النساء].

وقد بيّن تعالى في الحديد أنّ غير المهتدين منهم كثيرون، وذلك في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَسِقُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [الحديد]. وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾؛ أي جعل الكلمة باقية فيهم لعل الزائغين الضالين منهم يرجعون إلى الحق بإرشاد المؤمنين المهتدين منهم؛ لأن الحق ما دام قائماً في جملتهم فرجوع الزائغين عنه إليه مرجو مأمول كما دل عليه قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

والرجاء المذكور بالنسبة إلى بني آدم؛ لأنهم لا يعرفون من يصير إلى الهدى، ومن يصير إلى الضلال.

وقال القرطبي في تفسير هذه الآية الكريمة: وفي الكلام تقديم وتأخير؛ والمعنى فإنه سيهدين لعلهم يرجعون، وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون، أي قال لهم، يتوبون عن عبادة غير الله، اه منه.

وإيضاح كلامه أن المعنى أن إبراهيم قال لأبيه وقومه: إنني براء مما تعبدون لأجل أن يرجعوا عن الكفر إلى الحق.

والضمير في قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾؛ على هذا راجع إلى أبيه وقومه. وعلى ما ذكرناه أولاً فالضمير راجع إلى من ضل من عقبه؛ لأن الضالين منهم داخلون في لفظ العقب، فرجوع ضميرهم إلى العقب لا إشكال فيه، وهذا القول هو ظاهر السياق، والعلم عند الله تعالى. وهناك مسائل تتعلق بدخول أبناء البنات في العقب يرجع من أراد الوقوف عليها للأصل.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهْمُ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سَخِرَاطًا وَرَحِمَتْ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾﴾. وقالوا: أي قال كفار مكة، لولا أي هلا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين، أي من إحدى القريتين، وهما مكة والطائف، عظيم يعنون بعظمه كثرة ماله وعظم جاهه، وعلو منزلته في قومه، وعظيم مكة الذي يريدون هو الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب، وفي مرة بن كعب يجتمع نسبه بالنبي ﷺ، وقيل: هو عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف.

وعظيم الطائف: هو عروة بن مسعود. وقيل: حبيب بن عمرو بن عمير. وقيل: هو كنانة بن عبد ياليل، وقيل غير ذلك.

وإيضاح الآية أن الكفار أنكروا أولاً أن يبعث الله رسولاً من البشر كما أوضحناه مراراً، ثم لما سمعوا الأدلة على أن الله لم يبعث إلى البشر رسولاً إلا من البشر تنازلوا عن افتراضهم إرسال رسل من الملائكة إلى اقتراح آخر، وهو اقتراح تنزيل هذا القرآن على أحد الرجلين المذكورين.

وهذا الاقتراح يدل على شدة جهلهم، وسخافة عقولهم، حيث يجعلون كثرة المال، والجاه في الدنيا، موجباً لاستحقاق النبوة؛ وتنزيل الوحي؛ ولذا زعموا أن محمداً ﷺ ليس أهلاً لإنزال هذا القرآن عليه، لقلته ماله، وأن أحد الرجلين المذكورين أحق أن ينزل عليه القرآن منه ﷺ.

وقد بين تعالى في هذه الآية الكريمة، شدة جهلهم، وسخافة عقولهم، بقوله: ﴿أَهْمُ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾؛ والظاهر المتبادر أن المراد برحمة ربك: النبوة وإنزال الوحي. وإطلاق الرحمة على ذلك متعدد في القرآن كقوله تعالى في الدخان: ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥٠﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾... الآية [الدخان: ٥، ٦]، وقوله في آخر القصص: ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾... الآية [القصص: ٨٦]، وقوله في آخر الأنبياء: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٧٧﴾﴾ [الأنبياء].

وقد قدّمنا الآيات الدالة، على إطلاق الرحمة والعلم على النبوة في سورة الكهف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا ءَأَتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا﴾ [الكهف: ٦٥]. وقدّمنا معاني إطلاق الرحمة في القرآن في سورة فاطر، في الكلام على قوله تعالى: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾... الآية [فاطر: ٢].

وقوله تعالى في هذه الآية: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾؛ يعني أنه تعالى لم يفوض إليهم أمر معيشتهم وحظوظهم في الدنيا، بل تولى هو - جلّ وعلا - قسمة ذلك بينهم، فجعل هذا غنياً، وهذا فقيراً، وهذا رفيعاً، وهذا وضيعاً، وهذا خادماً، وهذا مخدوماً، ونحو ذلك.

فإذا لم يفوض إليهم حظوظهم في الدنيا، ولم يحكمهم فيها. بل كان تعالى هو المتصرف فيها بما شاء كيف شاء، فكيف يفوض إليهم أمر إنزال الوحي حتى يتحكموا في من ينزل إليه الوحي؟

فهذا مما لا يعقل ولا يظنه إلا غبي جاهل كالكفار المذكورين.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سَخِرَاتٍ﴾؛ التحقيق - إن شاء الله - أنه من التسخير.

ومعنى تسخير بعضهم لبعض، خدمة بعضهم البعض، وعمل بعضهم لبعض؛ لأن نظام العالم في الدنيا يتوقف قيامه على ذلك، فمن حكمته - جلّ وعلا -، أن يجعل هذا فقيراً مع كونه قوياً قادراً على العمل، ويجعل هذا ضعيفاً لا يقدر على العمل بنفسه، ولكنه تعالى يهيئ له دراهم، يؤجر بها ذلك الفقير القوي فينتفع القوي بدراهم الضعيف، والضعيف بعمل القوي فتنتظم المعيشة لكل منهما، وهكذا.

وهذه المسائل التي ذكرها الله - جلّ وعلا - في هذه السورة الكريمة، جاءت كلها موضحة في آيات آخر من كتاب الله.

أما زعمهم أن محمداً ﷺ أنقص شرفاً وقدرًا من أن ينزل عليه الوحي، فقد ذكره الله عنهم في سورة (ص)، في قوله تعالى: ﴿أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي﴾... الآية [ص: ٨].

فقول كفار مكة: ﴿أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا﴾ [ص: ٨]، معناه إنكارهم أن يخصه الله بإنزال الوحي من بينهم، لزعمهم أن فيهم من هو أحق بالوحي منه، لكثرة ماله، وجاهه وشرفه فيهم.

وقد قال قوم صالح مثل ذلك لصالح، كما قال تعالى عنهم: ﴿أَلَيْسَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَابٌ أَشْرٌ﴾ [القمر: ٢٥].

فقلوب الكفار متشابهة؛ فكانت أعمالهم متشابهة.

كما قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [البقرة: ١١٨]. وقال تعالى: ﴿اتَّوَصَّؤْا بِهِمْ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَآغُوتٌ﴾ [الذاريات].

وأما اقتراحهم إنزال الوحي على غيره منهم، وأنهم لا يرضون خصوصيته بذلك دونهم، فقد ذكره تعالى في سورة الأنعام في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١٢٤]. وقوله تعالى في المدثر: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُنشَرَةً﴾ [المدثر]؛ أي تنزل عليه صحف بالوحي من السماء، كما قاله مجاهد وغير واحد، وهو ظاهر القرآن، وفي الآية قول آخر معروف.

وأما إنكاره تعالى عليهم اقتراح إنزال الوحي على غير محمد ﷺ الذي دلت عليه

همزة الإنكار المتضمنة مع الإنكار لتجهيلهم، وتسفيه عقولهم في قوله: ﴿أَهْمُ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾، فقد أشار تعالى إليه مع الوعيد الشديد في الأنعام؛ لأنه تعالى لما قال: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾ أتبع ذلك بقوله رداً عليهم، وإنكاراً لمقالتهم: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ ثم أوعدهم على ذلك بقوله: ﴿سَيَصِيبُ الَّذِينَ اجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

وأما كونه تعالى هو الذي تولى قسمة معيشتهم بينهم، فقد جاء في مواضع آخر كقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادَىٰ رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾ [النحل: ٧١]. وقوله تعالى: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٢١]. وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الرعد: ٢٦]. وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ يُزَلِّ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ [الشورى: ٢٧]. وقوله تعالى: ﴿إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ [النساء: ١٣٥].

وقد أوضح تعالى حكمة هذا التفاضل والتفاوت في الأرزاق، والحفظ والوقوة والضعف، ونحو ذلك، بقوله هنا: ﴿لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمَ بَعْضًا سَخِرِيًّا﴾، كما تقدم.

وقوله تعالى هنا: ﴿وَرَحِمَتْ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾؛ يعني أن النبوة، والاهتداء بهدي الأنبياء، وما يناله المهتدون يوم القيامة، خير مما يجمعه الناس في الدنيا من حطامها.

وقد أشار الله تعالى إلى هذا المعنى، في غير هذا الموضع، كقوله في سورة يونس: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨]. وقوله تعالى في آل عمران: ﴿وَلَكِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [آل عمران: ١٥٧]. وقد أشار الشيخ إلى بعض ما يتعلق بالآية فليرجع من أراد الوقوف عليه إلى الأصل.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِيُوتِيَهُمْ سُفْهًا مِّنْ فَضْلِهِ وَمَعَارِجَ عَلَنًا يَظْهَرُونَ﴾ [٣٣] ﴿وَلِيُوتِيَهُمُ آتُونًا وَسُرْرًا عَلَنًا يَتَكُونُونَ﴾ [٣٤] ﴿وَزُخْرَفًا﴾ [٣٥] ﴿وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [٣٥]، قوله «ليوتيتهم»، في الموضوعين، قرأه ورش، وأبو عمرو، وحفص عن عاصم، بضم الباء على الأصل.

وقرأه قالون عن نافع، وابن كثير، وابن عامر، وحمزة، والكسائي، وشعبة عن عاصم «ليوتيتهم» بكسر الباء لمجانسة الكسرة للياء.

وقوله «سُفْهًا»: قرأه نافع، وابن عامر، وحمزة، والكسائي، وعاصم، «سُفْهًا» بضمين على الجمع.

وقرأه ابن كثير وأبو عمرو «سُفْهًا» بفتح السين وإسكان القاف على الإفراد المراد به الجمع.

وقوله: ﴿وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾: قرأه نافع وابن كثير، وابن عامر،

في رواية ابن ذكوان، وإحدى الروائيتين عن هشام وأبو عمرو والكسائي: «لَمَّا مَتَعَ الحياة الدنيا» بتخفيف الميم من «لما».

وقراه عاصم، وحمزة، وهشام، عن ابن عامر، في إحدى الروائيتين: ﴿لَمَّا مَتَعَ الْحَيَوَةَ الدُّنْيَا﴾؛ بتشديد الميم من «لما».

ومعنى الآية الكريمة أن الله لما بين حقارة الدنيا، وعظم شأن الآخرة في قوله: ﴿وَرَحِمْتُ رَيْكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾. أتبع ذلك بيان شدة حقارتها، وأنه جعلها مشتركة بين المؤمنين والكافرين، وجعل ما في الآخرة من النعيم خاصاً بالمؤمنين، دون الكافرين، وبين حكمته في اشتراك المؤمن مع الكافر، في نعيم الدنيا بقوله: ﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾؛ أي لولا كراهتنا لكون جميع الناس أمة واحدة، متفقة على الكفر، لأعطينا زخارف الدنيا كلها للكفار.

ولكننا لعلمنا بشدة ميل القلوب إلى زهرة الحياة الدنيا، وحبها لها لو أعطينا ذلك كله للكفار، لحملت الرغبة في الدنيا جميع الناس على أن يكونوا كفاراً، فجعنا في كل من الكافرين والمؤمنين غنياً وفقيراً، وأشركنا بينهم في الحياة الدنيا.

ثم بين - جلّ وعلا - اختصاص نعيم الآخرة بالمؤمنين في قوله: ﴿وَإِنْ كُنَّ ذَلِكُمْ لَمَّا مَتَعَ الْحَيَوَةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾؛ أي خالصة لهم دون غيرهم.

وهذا المعنى جاء موضحاً في غير هذا الموضع كقوله تعالى في الأعراف: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوَةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الأعراف: ٣٢].

فقوله: ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوَةِ الدُّنْيَا﴾، أي مشتركة بينهم في الحياة الدنيا، خالصة يوم القيامة؛ أي خاصة بهم، دون الكفار، يوم القيامة، إذ لا نصيب للكفار البتة في طيبات الآخرة.

فقوله في آية الأعراف هذه: ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوَةِ الدُّنْيَا﴾ [الأعراف: ٣٢] صريح في اشتراك المؤمنين مع الكفار في متاع الحياة الدنيا.

وذلك الاشتراك المذكور، دل عليه حرف الامتناع، للوجود الذي هو «لولا»، في قوله هنا: ﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾.

وخصوص طيبات الآخرة بالمؤمنين المنصوص عليه في آية الأعراف بقوله: ﴿خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الأعراف: ٣٢]، هو الذي أوضحه تعالى في آية الزخرف هذه بقوله: ﴿وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾، وجميع المؤمنين يدخلون في الجملة في لفظ «المتقين»؛ لأن كل مؤمن اتقى الشرك بالله.

وما دلت عليه هذه الآيات من أنه تعالى يعطي الكفار من متاع الحياة الدنيا، دلت عليه آيات كثيرة من كتاب الله، كقوله تعالى: ﴿قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمْتِعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى

عَذَابِ النَّارِ ﴿البقرة: ١٢٦﴾. وقوله: ﴿نُمِعْتُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضَّطُّرْتُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿١٦﴾﴾ [القمان]. وقوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيِكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٢٣]. وقوله: ﴿قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ مَتَّعَ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نَذِقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [يونس]، والآيات بمثل هذا كثيرة.

وقد بين تعالى في آيات من كتابه أن إنعامه على الكافرين ليس لكرامتهم عليه، ولكنه للاستدراج، كقوله تعالى: ﴿فَدَرَبِي وَمَنْ يَكْذِبْ يَهْدِي اللَّهُ لِمَا يَكْفُرُ بِهِ إِنَّ اللَّهَ يَهْدِي الْقَوْمَ الضَّالِّينَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنعام]. وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فُجِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْتَهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَفُتِحُوا دَابِرَ الْقَوَارِ الْأَيْمَنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنعام] وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأعراف]. وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلِمَ نَدُلُّهُ الرَّحْمَنَ مَدًّا ﴿٧٥﴾﴾ [سريم]. على أظهر التفسيرين. وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُطَمِّئِلُهُمْ خَيْرٌ لِنَفْسِهِمْ إِنََّّمَا نُطَمِّئِلُهُمْ لِزَادُوا إِسْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٧٧﴾﴾ [آل عمران]. وقوله تعالى: ﴿فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرٌ﴾ [الحج: ٤٤].

ودعوى الكفار أن الله ما أعطاهم المال ونعيم الدنيا إلا لكرامتهم عليه واستحقاقهم لذلك، وأنه إن كان البعث حقاً أعطاهم خيراً منه في الآخرة، قد ردها الله عليهم في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَيْنَ ﴿٥٥﴾ نَسَائِجِهِمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المؤمنون]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُفَرِّقُكُمْ عَدْنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مِنْ ءَامِنٍ وَعَمَلٍ صَالِحٍ﴾ [سبأ: ٣٧]، وقوله تعالى: ﴿قَالُوا مَا آغَيْنَا عَنْكُمْ جَمْعَكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تُسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الأعراف: ٤٨]، وقوله تعالى: ﴿مَا آغَيْنَا عَنْهُ مَالَهُ وَمَا كَسَبَ ﴿٥٦﴾﴾ [المسد] وقوله تعالى: ﴿وَمَا يُعْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى ﴿٥٦﴾﴾ [الليل]. وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْتُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَرَكَّبْتُمْ مَا حَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٤]، إلى غير ذلك من الآيات. وقد قدمنا طرفاً من هذا في سورة الكهف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَيْنَ رُدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٦].

ولنرجع إلى تفسير ألفاظ الآية الكريمة، فقوله: ﴿جَعَلْنَا﴾؛ أي صيرنا، وقوله: ﴿لِيُؤْتِيَهُمْ﴾، بدل اشتغال مع إعادة العامل، من قوله: ﴿لِيَمُنَّ بِكُفْرِهِمْ﴾، وعلى قراءة «سُقفاً» بضمّتين، فهو جمع سقف، وسقف البيت معروف. وعلى قراءة سقفاً بفتح السين، وسكون القاف فهو مفرد أريد به الجمع.

وقد قدمنا في أول سورة الحج، في الكلام على قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفلاً﴾ [الحج: ٥]، أن المفرد إذا كان اسم جنس، يجوز إطلاقه مراداً به الجمع، وأكثرنا من أمثلة ذلك في القرآن، ومن الشواهد العربية على ذلك.

وقوله ﴿وَمَعَارِجَ﴾ الظاهر أنه جمع معرج بلا ألف بعد الراء، والمعرج والمعراج بمعنى واحد؛ وهو الآلة التي يعرج بها أي يصعد بها إلى العلو.

وقوله: ﴿يَظْهَرُونَ﴾ أي يصعدون ويرتفعون، حتى يصيروا على ظهور البيوت، ومن ذلك المعنى قوله تعالى: ﴿فَمَا اسْطَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَلَعُوا لَهُمْ نَقْبًا﴾ [الكهف]. والسرر جمع سرير، والاتكاء معروف، والأبواب جمع باب وهو معروف، والزخرف الذهب.

قال الزمخشري: إن المعارج التي هي المصاعد، والأبواب والسرر كل ذلك من فضة، كأنه يرى اشتراك المعطوف والمعطوف عليه في ذلك، وعلى هذا المعنى فقوله: «زخرفاً» مفعول، عامله محذوف، والتقدير: وجعلنا لهم مع ذلك زخرفاً.

وقال بعض العلماء: إن جميع ذلك بعضه من فضة، وبعضه من زخرف، أي ذهب. وقد ذكر القرطبي أن إعراب قوله: «وزخرفاً» على هذا القول أنه منصوب بنزع الخافض، وأن المعنى من فضة، ومن زخرف، فحذف حرف الجر فانتصب زخرفاً. وأكثر علماء النحو على أن النصب بنزع الخافض ليس مطرداً ولا قياسياً، وما سمع منه يحفظ ولا يقاس عليه.

وعليه درج ابن مالك في الخلاصة في قوله: وإن حذف فالنصب للمنجر نقلاً. إلخ. وعلي بن سليمان وهو الأخفش الصغير، يرى إطراده في كل شيء أمن فيه اللبس. كما أشار في الكافية بقوله:

وابن سليمان اطراده رأى إن لم يخف لبس كمن زيد نأى
وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنَّ ذَلِكُمْ لَمَّا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾؛ على قراءة الجمهور بتخفيف الميم من لما، فإن هي المخففة، من الثقيلة، واللام هي الفارقة بين إن المخففة من الثقيلة، وإن النافية المشار إليها بقوله في الخلاصة:

وخففت إن فعل العمل وتلزم اللام إذا ما تهمل
وما مزيدة للتوكيد، وأما على قراءة عاصم وحمزة وابن عامر في إحدى الروايتين عن هشام «لما» بتشديد الميم فإن نافية، ولما حرف إثبات بمعنى إلا.

والمعنى: وما كل ذلك إلا متاع الحياة الدنيا.

وذكر بعضهم أن تشديد ميم لما على بعض القراءات في هذه الآية وآية الطارق: ﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ [الطارق]، لغة بني هذيل ابن مدركة. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَشَأْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِضْ لَهُ سَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الرحمن] وَإِنَّهُمْ لَصَادِقُونَ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ .

وقد قدّمنا الآيات الموضحة له في سورة فصلت، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَفِيضًا لَّهُمْ قُرْآنًا﴾... الآية [فصلت: ٢٥].

قوله تعالى: ﴿وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْكُرًا فِي الْعَذَابِ مُشْرِكُونَ﴾ (٣٩)، قد قدّمنا الكلام عليه في الصفات، في الكلام على قوله: ﴿فَأَنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْرِكُونَ﴾ (٣٩) [الصفات].

قوله تعالى: ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْى وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (٤٠).
قد قدّمنا الآيات الموضحة له بكثرة في سورة النمل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ (٤٠) [النمل].
قوله تعالى: ﴿فَاسْتَسِمْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٤١).

أمر الله - جلّ وعلا - نبيه ﷺ في هذه الآية الكريمة أن يتمسك بهدي هذا القرآن العظيم، ويبيّن له أنّه على صراط مستقيم؛ أي طريق واضح، لا اعوجاج فيه، وهو دين الإسلام الذي تضمنه هذا القرآن العظيم الذي أوحى إليه.
وما تضمنته هذه الآية الكريمة، قد جاء موضحاً في آيات أخر، من كتاب الله.

أما أمره بالتمسك بالقرآن العظيم، فقد قدّمنا الآيات الموضحة له في سورة الكهف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَأَتْلُ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ [الكهف: ٢٧].

وأما إخباره له ﷺ بأنّه على صراط مستقيم، فمن الآيات التي أوضح ذلك فيها قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١٨) [الجاثية]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٥٢) [الشورى]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٢٣) [وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنُكَوِّنُكَ ﴿٥٦﴾ [المؤمنون]، وقوله تعالى: ﴿فَلَا يَنْزِعُ عَنْكَ فِي الْأَمْرِ وَاَدْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٦٧]، وقوله تعالى: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ (١٨) [النمل] إلى غير ذلك من الآيات.

وآية الزخرف هذه تدل على أن المتمسك بهذا القرآن على هدى من الله، وهذا معلوم بالضرورة.

قوله تعالى: ﴿وَسَأَلْنَا مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ (٤٥)، ما تضمنته هذه الآية الكريمة، من أنّ جميع الرسل جاءوا بإخلاص التوحيد لله، الذي تضمنته كلمة لا إله إلا الله، جاء موضحاً في آيات كثيرة، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].
وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء]، وذلك التوحيد هو أول ما يأمر به كل نبي أمته.

قرأ هذا الحرف نافع وابن عامر والكسائي (يَصُدُّون) بضم الصاد.
 وقرأه ابن كثير وأبو عمرو وعاصم وحمزة (يَصِدُّون) بكسر الصاد.
 فعلى قراءة الكسر فمعنى «يصدون» يضحجون ويصيحون، وقيل يضحكون، وقيل
 معنى القراءتين واحد. كيعرشون ويعرشون ويعكفون ويعكفون.
 وعلى قراءة الضم فهو من الصدود.

والفاعل المحذوف في قوله: ﴿صَرَبَ﴾. قال جمهور المفسرين: هو عبد الله بن
 الزبعرى السهمي قبل إسلامه.

أي ولما ضرب ابن الزبعرى المذكور عيسى ابن مريم مثلاً فاجأك قومك بالضجيج
 والصياح والضحك، فرحاً منهم وزعماً منهم أن ابن الزبعرى خصمك، أو فاجأك
 صدودهم عن الإيمان بسبب ذلك المثل.

والظاهر أن لفظة «من» هنا سببية، ومعلوم أن أهل العربية، يذكرون أن من معاني
 من السببية، ومنه قوله تعالى: ﴿مِمَّا خَطَبْتَهُمْ أُعْرِفُوا فَأَدْخَلُوا نَارًا﴾ [نوح: ٢٥]، أي بسبب
 خطيئاتهم أُعْرِفُوا.

ومن ذلك قول الحالفين في أيمان القسامة: أقسم بالله لمن ضربه مات.

وإيضاح معنى ضرب ابن الزبعرى عيسى مثلاً، أن الله لما أنزل قوله تعالى:
 ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرَدُونَ﴾ [الأنبياء]،
 قال ابن الزبعرى: إن محمداً ﷺ يقول: إن كل معبود من دون الله في النار وأننا
 وأصنامنا جميعاً في النار، وهذا عيسى ابن مريم قد عبده النصارى من دون الله فإن كان
 ابن مريم مع النصارى الذين عبده في النار فقد رضي أن نكون نحن وآلهتنا معه.
 وقالوا مثل ذلك في عزير والملائكة؛ لأن عزيراً عبده اليهود، والملائكة عبدهم
 بعض العرب.

فاتضح أن ضربه عيسى مثلاً، يعني أنه على ما يزعم أن محمداً ﷺ قاله، من أن
 كل معبود وعابده في النار، يقتضي أن يكون عيسى مثلاً لأصنامهم، في كون الجميع
 في النار، مع أن النبي ﷺ يثني على عيسى الثناء الجميل، ويبين للناس أنه عبد الله
 ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه.

فزعم ابن الزبعرى أن كلام النبي ﷺ لما اقتضى مساواة الأصنام مع عيسى في
 دخول النار مع أنه ﷺ يعترف بأن عيسى رسول الله ﷺ وأنه ليس في النار، دل ذلك
 على بطلان كلامه عنده.

وعند ذلك أنزل الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾
 لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ ﴿١٠٣﴾
 [الأنبياء: ١٠١ - ١٠٣]، وأنزل الله أيضاً قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا﴾.

وعلى هذا القول فمعنى قوله تعالى: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدلاً﴾؛ أي ما ضربوا عيسى مثلاً إلا من أجل الجدل والخصومة بالباطل.

وقيل: «إن جدلاً» حال وإتيان المصدر المنكر حالاً كثير، وقد أوضحنا توجيهه مراراً، والمراد بالجدل هنا الخصومة بالباطل لقصد الغلبة بغير حق.

قال جماعة من العلماء: والدليل على أنهم قصدوا الجدل بشيء يعلمون في أنفسهم أنه باطل، أن الآية التي تدرعوا بها إلى الجدل، لا تدل البتة على ما زعموه، وهم أهل اللسان، ولا تخفى عليهم معاني الكلمات.

والآية المذكورة إنما عبر الله فيها بلفظة «ما» التي هي في الوضع العربي لغير العقلاء لأنه قال: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]، ولم يقل «ومن» تعبدون وذلك صريح في أن المراد الأصنام، وأنه لا يتناول عيسى ولا عزيزاً ولا الملائكة، كما أوضح تعالى أنه لم يرد ذلك بقوله تعالى بعده: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى﴾ [الأنبياء: ١٠١].

وإذا كانوا يعلمون من لغتهم أن الآية الكريمة، لم تتناول عيسى بمقتضى لسانهم العربي الذي نزل به القرآن، تحققنا أنهم ما ضربوا عيسى مثلاً، إلا لأجل الجدل، والخصومة بالباطل.

ووجه التعبير في صيغة الجمع في قوله: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدلاً﴾؛ مع أن ضارب المثل واحد وهو ابن الزبعرى يرجع إلى أمرين:

أحدهما: أن من أساليب اللغة العربية إسناد فعل الرجل الواحد من القبيلة إلى جميع القبيلة، ومن أصرح الشواهد العربية في ذلك قوله:

فسيف بني عبس وقد ضربوا به نبا بيدي ورقاء عن رأس خالد فإنه نسب الضرب إلى جميع بني عبس مع تصريحه بأن السيف في يد رجل واحد منهم، وهو ورقاء بن زهير، والشاعر يشير بذلك إلى قتل خالد بن جعفر الكلابي لزهير بن جذيمة العبسي، أن ورقاء بن زهير، ضرب بسيف بني عبس، رأس خالد بن جعفر الكلابي، الذي قتل أباه ونبا عنه، أي لم يؤثر في رأسه، فإن معنى: نبا السيف ارتفع عن الضربة ولم يقطع.

والشاعر يهجو بني عبس بذلك، والحروب التي نشأت عن هذه القصة، وقتل الحارث بن ظالم المري لخالد المذكور، كل ذلك معروف في محله.

وثانيهما: أن جميع كفار قريش، صوبوا ضرب ابن الزبعرى عيسى مثلاً، وفرحوا بذلك، ووافقوه عليه، فصاروا كالمتمثلين عليه.

وبهذين الأمرين المذكورين جمع المفسرون بين صيغة الجمع في قوله: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ﴾ [الأعراف: ٧٧]. وقوله ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا﴾ [الشمس: ١٤]، وبين صيغة الإفراد في قوله: ﴿فَادَاؤُا صَاحِبِهِمْ فَطَاعَنِ فَعَقَرَ﴾ ﴿٢٩﴾ [القمر].

وقال بعض العلماء: الفاعل المحذوف في قوله: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا﴾؛ هو عامة قريش.

والذين قالوا: إن كفار قريش لما سمعوا النبي ﷺ يذكر عيسى، وسمعوا قول الله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ﴾ [آل عمران: ٥٩]، قالوا للنبي ﷺ: ما تريد بذكر عيسى إلا أن نعبدك كما عبد النصارى عيسى. وعلى هذا فالمعنى أنهم ضربوا عيسى مثلاً للنبي ﷺ في عبادة الناس لكل منهما، زاعمين أنه يريد أن يعبد كما عبد عيسى.

وعلى هذا القول، فمعنى قوله: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾؛ أي ما ضربوا لك هذا المثل إلا لأجل الخصومة بالباطل، مع أنهم يعلمون أنك لا ترضى أن تعبد بوجه من الوجوه. وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَاهَلِ الْكُتُبِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِن دُونِ اللَّهِ﴾. . . الآية [آل عمران: ٦٤].

وإن كان من القرآن المدني النازل بعد الهجرة فمعناه يكرره عليهم النبي ﷺ كثيراً قبل الهجرة كما هو معلوم.

وكذلك قوله: ﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَن تَتَّخِذُوا لِلتَّيَكَّةِ وَالنِّسِيِّنَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران].

ولا شك أن كفار قريش متيقنون، في جميع المدة التي أقامها ﷺ في مكة قبل الهجرة بعد الرسالة، وهي ثلاث عشرة سنة، أنه لا يدعو إلا إلى عبادة الله وحده لا شريك له، فادعائهم أنه يريد أن يعبدوه، افتراء منهم، وهم يعلمون أنهم مفترون في ذلك.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿ءَأَلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾؟ التحقيق أن الضمير في قوله: ﴿هُوَ﴾ راجع إلى عيسى، لا إلى محمد - عليهما الصلاة والسلام -.

قال بعض العلماء: ومرادهم بالاستفهام تفضيل معبوداتهم على عيسى.

قيل: لأنهم يتخذون الملائكة آلهة، والملائكة أفضل عندهم من عيسى.

وعلى هذا فمرادهم أن عيسى عبد من دون الله، ولم يكن ذلك سبباً لكونه في النار، ومعبوداتنا خير من عيسى، فكيف تزعم أنهم في النار.

وقال بعض العلماء: أرادوا تفضيل عيسى على آلهتهم، والمعنى على هذا أنهم يقولون: عيسى خير من آلهتنا، أي في زعمك وأنت تزعم أنه في النار، بمقتضى عموم ما تتلوه من قوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨].

وعيسى عبده النصارى من دون الله، فدلالة قولك على أن عيسى في النار، مع اعترافك بخلاف ذلك، يدل على أن ما تقوله، من أنا وآلهتنا في النار ليس بحق أيضاً.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾؛ أي لد، مبالغون في الخصومة بالباطل، كما قال تعالى: ﴿وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لَّدُنَّا﴾ [مریم: ٩٧]، أي شديدي الخصومة.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَخْضَابَ﴾ [البقرة: ٢٠٤]؛ لأن الفعل بفتح فكسر كخضم، من صيغ المبالغة، كما هو معلوم في محله.

وقد علمت مما ذكرنا أن قوله تعالى هنا: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا﴾، إنما بينته الآيات التي ذكرنا بيان سببه. ومعلوم أن الآية قد يتضح معناها بيان سببها.

فعلى القول الأول، أنهم ضربوا عيسى مثلاً لأصنامهم، في دخول النار، فإن ذلك المثل يفهم من أن سبب نزول الآية نزول قوله تعالى قبلها: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]، لأنها لما نزلت قالوا: إن عيسى عبد من دون الله كآلهتهم فهم بالنسبة لما دلت عليه سواء، وقد علمت بطلان هذا مما ذكرناه آنفاً.

وعلى القول الثاني أنهم ضربوا عيسى مثلاً لمحمد ﷺ في أن عيسى قد عبد، وأنه ﷺ يريد أن يعبد كما عبد عيسى، فكون سبب ذلك سماعهم لقوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقْنَاهُ مِنْ تُرَابٍ﴾ [آل عمران: ٥٩]، وسماعهم للآيات المكية النازلة في شأن عيسى يوضح المراد بالمثل.

وأما الآيات التي بينت قوله: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾؛ فبيانها له واضح على كلا القولين، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾، والتحقيق أن الضمير في قوله: «هو» عائد إلى عيسى أيضاً، لا إلى محمد - عليهما الصلاة والسلام -.

وقوله هنا: ﴿عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾؛ لم يبين هنا شيئاً من الإنعام الذي أنعم به على عبده عيسى، ولكنه بين ذلك في المائدة، في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَذْكَرٌ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالدِّيكِ إِذْ أَيَّدْنَاكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْنَاكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَامَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [المائدة: ١١٠]، وفي آل عمران، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِهَاً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾. إلى قوله ﴿وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: ٤٥ - ٤٦]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَعَلَّمَ لِسَاعَةَ فَلَا تَمَرَّتْ بِهَا﴾، التحقيق أن الضمير في قوله: «وإنه» راجع إلى عيسى لا إلى القرآن، ولا إلى النبي ﷺ.

ومعنى قوله: ﴿لَعَلَّمَ لِسَاعَةَ﴾؛ على القول الحق الصحيح الذي يشهد له القرآن العظيم، والسنة المتواترة، هو أن نزول عيسى في آخر الزمان حياً، علم للساعة أي علامة لقرب مجيئها لأنه من أشراتها الدالة على قربها.

وهناك مسائل تتعلق بنزول عيسى ﷺ آخر الزمان فليرجع من أراد الوقوف عليها إلى الأصل.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَلَا تَمَتَّرْتُ بِهَا﴾؛ أي لا تشكن في قيام الساعة؛ فإنه لا شك فيه.

وقد قدمنا الآيات الموضحة له مراراً كقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ [الحج: ٧]. وقوله: ﴿وَنُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧]. وقوله: ﴿لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [النساء: ٨٧] وقوله ﴿فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْتَهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [آل عمران: ٢٥]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَصُدُّكُمْ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمُ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له بكثرة مراراً كقوله: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦]. وقوله: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ [الكهف: ٥٠]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمِ إِلْيَاسَ﴾، قوله هنا: ﴿ظَلَمُوا﴾؛ أي كفروا، بدليل قوله في مريم في القصة بعينها: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّسْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [مريم: ٣٧].

وقوله: ﴿مِنْ مَّسْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ يوضحه قوله هنا: ﴿مِنْ عَذَابِ يَوْمِ إِلْيَاسَ﴾.

وقد قدمنا مراراً الآيات الدالة على إطلاق الظلم على الكفر كقوله: ﴿إِنَّ الشَّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]. وقوله: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤]. وقوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٦]. وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢]، أي بشرك، كما فسره به النبي ﷺ في الحديث الثابت في صحيح البخاري.

قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

الاستفهام بهل هنا بمعنى النفي، وينظرون بمعنى ينتظرون، أي ما ينتظر الكفار إلا الساعة، أي القيامة أن تأتيهم بغتة، أي في حال كونها مباغتة لهم، أي مفاجئة لهم، وهم لا يستغفرون؛ أي بمفاجأتها في حال غفلتهم وعدم شعورهم بمجيئها.

والظاهر أن المصدر المنسب من «أن» وصلتها في قوله: ﴿أَنْ تَأْتِيَهُمْ﴾ في محل نصب، على أنه بدل اشتمال من الساعة، وكون ينظرون، بمعنى ينتظرون، معروف في كلام العرب، ومنه قول امرئ القيس:

فإنكما إن تنظراني ساعة من الدهر تنفعني لدى أم جنذب

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن الساعة تأتيهم بغتة، جاء موضحاً في آيات من كتاب الله، كقوله تعالى في الأعراف: ﴿تَنُقَلَّتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْتَةً﴾ [الأعراف: ١٨٧]، وقوله تعالى في القتال: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾ [محمد: ٨١].

وقوله تعالى: ﴿مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَجِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهَمُّ يَجِئُصُّونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً ﴿٥٠﴾ [يس: ٤٩، ٥٠]، فالمراد بالصيحة: القيامة. وقوله: ﴿وَهُمْ يَجِئُصُّونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً ﴿٥٠﴾ [يس: ٤٩، ٥٠]، يدل على أنها تأتيهم وهم في غفلة، وعدم شعور بآتيانها، إلى غير ذلك من الآيات، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿يَعْبَادِ لَا حَوْفَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾﴾. ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة بعض صفات الذين ينتفي عنهم الخوف والحزن يوم القيامة. فذكر منها هنا الإيمان بآيات الله والإسلام، وذكر بعضاً منها في غير هذا الموضع.

فمن ذلك الإيمان والتقوى، وذلك في قوله تعالى في سورة يونس: ﴿إِلَّا إِنْ أَوْلِيَاءَهُ اللَّهُ لَا حَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٦﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [يونس].

ومن ذلك الاستقامة، وقولهم: ربنا الله، وذلك في قوله في فصلت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا...﴾ الآية [فصلت: ٣٠]. وقوله تعالى في الأحقاف: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلَا حَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الأحقاف]، إلى غير ذلك من الآيات.

والخوف في لغة العرب: الغم من أمر مستقبل، والحزن: الغم من أمر ماضٍ. وربما استعمل كل منهما في موضع الآخر.

وإطلاق الخوف على العلم أسلوب عربي معروف.

قال بعض العلماء: ومنه قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ يَخَافَ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾. قال معناه: إلا أن يعلم، ومنه قول أبي محجن الثقفي:

فإن مت فادفني إلى جنب كرمة تروي عظامي في الممات عروقها

ولا تدفني في الفلاة فإنني أخاف إذا ما مت ألا أذوقها

فقوله أخاف: أي لا أعلم؛ لأنه لا يشك في أنه لا يشربها بعد موته.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾﴾، ظاهره المغايرة بين الإيمان والإسلام.

وقد دل بعض الآيات على اتحادهما كقوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [الذاريات].

ولا منافاة في ذلك، فإن الإيمان يطلق تارة على جميع ما يطلق عليه الإسلام من الاعتقاد والعمل، كما ثبت في الصحيح، في حديث وفد عبد القيس، والأحاديث بمثل ذلك كثيرة جداً.

ومن أصرحها في ذلك قوله ﷺ: «الإيمان بضع وسبعون». وفي بعض الروايات

الثابتة في الصحيح: «وستون شعبة أعلاها شهادة ألا إله إلا الله وأدناها إمطة الأذى عن الطريق»، فقد سمي ﷺ «إمطة الأذى عن الطريق» إيماناً.

وقد أطال البيهقي رَحِمَهُ اللهُ فِي شَعْبِ الْإِيمَانِ، فِي ذِكْرِ الْأَعْمَالِ الَّتِي جَاءَ الْكِتَابِ وَالسَّنَةِ بِتَسْمِيَتِهَا إِيْمَانًا، فَالْإِيمَانُ الشَّرْعِيُّ التَّامُّ وَالْإِسْلَامُ الشَّرْعِيُّ التَّامُّ مَعْنَاهُمَا وَاحِدٌ. وَقَدْ يُطْلَقُ الْإِيمَانُ إِطْلَاقًا آخَرَ عَلَى خُصُوصِ رُكْنِهِ الْأَكْبَرِ الَّذِي هُوَ الْإِيمَانُ بِالْقَلْبِ، كَمَا فِي حَدِيثِ جَبْرِيلَ الثَّابِتِ فِي الصَّحِيحِ.

والقلب مضغة في الجسد إذا صلحت صلح الجسد كله فغيره تابع له، وعلى هذا تحصل المغايرة في الجملة بين الإيمان والإسلام، فالإيمان، على هذا الإطلاق اعتقاد، والإسلام شامل للعمل.

واعلم: أَنَّ مَغَايِرَتَهُ تَعَالَى بَيْنَ الْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمْنَا قُل لَّمْ نُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤].

قال بعض العلماء: المراد بالإيمان هنا، معناه الشرعي، والمراد بالإسلام معناه اللغوي؛ لأن إذعان الجوارح وانقيادها دون إيمان القلب إسلام لغة لا شرعاً.

وقال بعض العلماء: المراد بكل منهما معناه الشرعي، ولكن نفي الإيمان في قوله: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ﴾، يراد به عند من قال هذا، نفي كمال الإيمان لا نفي أصله، ولكن ظاهر الآية لا يساعد على هذا؛ لأن قوله: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ﴾ [الحجرات: ١٤]، فعل في سياق النفي وهو صيغة عموم على التحقيق، وإن لم يؤكد بمصدر، ووجهه واضح جداً، كما قدّمناه مراراً.

وهو أن الفعل الصناعي ينحل عن مصدر وزمن عند النحويين، وعن مصدر وزمن ونسبة عند البلاغيين، كما حرروه في مبحث الاستعارة التبعية، وهو أصوب.

فالمصدر كامن في مفهوم الفعل الصناعي إجماعاً، وهو نكرة لم تتعرف بشيء فيؤول إلى معنى النكرة في سياق النفي.

وقد أشار صاحب (مراقي السعود) إلى أن الفعل في سياق النفي أو الشرط من صيغ العموم بقوله:

ونحو لا شربت أو وإن شربا واتفقوا إن مصدر قد جلبا

ووجه إهمال «لا» في هذه الآية في قوله تعالى: ﴿لَا حَوْفٌ﴾ أن لا الثانية التي هي ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢] بعدها معرفة وهي الضمير، وهي لا تعمل في المعارف، بل في النكرات، فلما وجب إهمال الثانية، أهملت الأولى لينسجم الحرفان بعضهما مع بعض في إهمالهما معاً.

قوله تعالى: ﴿أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ مُخْبَرُونَ﴾.

قوله تعالى في هذه الآية ﴿وَأَزْوَاجُهُمْ﴾؛ فيه لعلماء التفسير وجهان:

أحدهما: أن المراد بأزواجهم، نظراؤهم وأشباههم في الطاعة وتقوى الله. واقتصر على هذا القول ابن كثير.

وثانيهما: أن المراد بأزواجهم، نساؤهم في الجنة؛ لأن هذا الأخير أبلغ في التنعم والتلذذ من الأول؛ ولذا يكثّر في القرآن، ذكر إكرام أهل الجنة بكونهم مع نسائهم دون الامتنان عليهم بكونهم مع نظرائهم وأشباههم في الطاعة.

قال تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَكَاهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِنُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [يس].

وقال كثير من أهل العلم: إن المراد بالشغل المذكور في الآية، هو افتضاض الأبقار. وقال تعالى: ﴿وَرَوَّجْتُهُمْ بِحُورٍ عِينٍ﴾ [الدخان: ٥٤]. وقال تعالى: ﴿وَحُورٌ عِينٌ ﴿٧٢﴾ كَأَمْثَلِ اللَّوْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴿٧٣﴾﴾ [الواقعة]. وقال تعالى: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ ﴿٧٦﴾﴾ إلى قوله: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْبُيُوتِ ﴿٧٧﴾﴾ [الرحمن]، وقال: ﴿وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ ﴿٨١﴾﴾ [الصفات]. وقال تعالى: ﴿وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أُنْثَىٰ ﴿٥٦﴾﴾ [ص]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقد قدّمنا أن مفرد الأزواج زوج بلا هاء، وأن الزوجة بالتاء لغة لا لحن، خلافاً لمن زعم أن الزوجة لحن من لحن الفقهاء، وأن ذلك لا أصل له في اللغة. والحق أن ذلك لغة عربية، ومنه قول الفرزدق:

وإن الذي يسعى ليفسد زوجتي كساع إلى أسد الشرى يستبيلها
وقول الحماسي:

فبكى بناتي شجوهن وزوجتي والظاعنون إليّ ثم تصدع

وفي صحيح مسلم من حديث أنس أن النبي ﷺ قال في صفة: «إنها زوجتي». وقوله: ﴿مُحَبَّرُونَ﴾؛ أقوال العلماء فيه راجعة إلى شيء واحد، وهو أنهم يكرمون بأعظم أنواع الإكرام وأتمها.

قوله تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِّنْ ذَهَبٍ﴾.

قد قدّمنا الآيات الموضحة له، وجميع الآيات التي فيها الإنعام على أهل الجنة بأواني الذهب والفضة، والتحلي بهما، ولبس الحرير، ومنه السندس والإستبرق، في سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَسَتَّخِرُوا مِنْهُ حِليَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ [النحل: ١٤].

قوله تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أن كل ما تشتهيه الأنفس، وتلذ الأعين، أي تلتذ به الأعين أي برؤيته لحسنه، كما قال تعالى: ﴿صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ الْتَّظِيرِينَ﴾ [البقرة: ٦٩]. وأسند اللذة إلى العين، وهي في الحقيقة مسندة لصاحب

العين، كإسناد الكذب والخطيئة إلى الناصية، وهي مقدم شعر الرأس في قوله تعالى: ﴿نَاصِيَةٌ كَذِبِيَّةٌ خَاطِئَةٌ﴾ [العلق]، وكإسناد الخشوع، والعمل والنصب، إلى الوجوه، في قوله تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَشِيعَةٌ﴾ [٢] عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ﴾ [٣] . . . الآية [الغاشية].

ومعلوم أن الكذب والخطيئة مسندان في الحقيقة لصاحب الناصية، كما أن الخشوع والعمل والنصب مسندات إلى أصحاب الوجوه.

وما دلت عليه هذه الآية الكريمة من أن الجنة فيها كل مشتهى، وكل مستلذ، جاء مسوطةً موضحة أنواعه في آيات كثيرة من كتاب الله، وجاء مجملًا أيضاً إجمالاً شاملاً لكل شيء من النعيم.

أما إجمال ذلك ففي قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً يَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧].

وأما بسط ذلك وتفصيله، فقد بين القرآن أن من ذلك النعيم المذكور في الآية، المشارب، والمآكل، والمناكح، والفرش، والسرر، والأواني، وأنواع الحلبي والملابس والخدم إلى غير ذلك، وسنذكر بعض الآيات الدالة على كل شيء من ذلك.

أما المآكل فقد قال تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [٧٦]، وقال: ﴿وَلَحْمَ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ [الواقعة: ١٦] وقال تعالى: ﴿وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ﴾ [٣٦] لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ [الواقعة: ٣٣]. وقال تعالى: ﴿كُلُّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ تَمَرٍ رَزَقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأْتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾ . . . الآية [البقرة: ٢٥]، إلى غير ذلك من الآيات.

أما المشارب فقد قال تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ [٥] عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ [الإنسان: ٦] وقال تعالى: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَجْجِيلًا﴾ [٧] عَيْنًا فِيهَا سَمْنٌ سَلْسِيلًا﴾ [٨] . . . الآية [الإنسان]، وقوله تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ [٧] بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِن مَّعِينٍ﴾ [٨] لَا يَصُدُّونَ عَنْهَا وَلَا يَرْفُونَ﴾ [الواقعة: ١٩] وقال تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِن مَّعِينٍ﴾ [٤٥] بِيضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ﴾ [٤٦] لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُرْفُونَ﴾ [الصفات: ٤٧] وقال تعالى: ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّن حَمْرٍ لَّذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّن عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ [محمد: ١٥]. وقال تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا يَمَا اسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤]، إلى غير ذلك من الآيات.

وأما الملابس والأواني والحلي، فقد قدّمنا الكلام عليها مستوفى في سورة النحل. وأما المناكح فقد قدّمنا بعض الآيات الدالة عليها قريباً، وهي كثيرة كقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥]. ويكفي ما قدّمنا من ذلك قريباً.

وأما ما يتكئون عليه من الفرش والسرر ونحو ذلك، ففي آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿مُتَّكِنِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَّيْنًا مِّنِ اسْتَرْقٍ﴾ [الرحمن: ٥٤]. وقوله تعالى: ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلِّلٍ

عَلَى الْأَرْبَابِكُمْ مُتَّكِنُونَ ﴿٥٦﴾ [يسر]. وقوله تعالى: ﴿عَلَى سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿٥٥﴾ مُتَّكِنِينَ عَلَيْهَا مُتَّقِلِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الواقعة]. والسرر الموضونة هي المنسوجة بقضبان الذهب.

وقوله تعالى: ﴿إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَلِّبِينَ﴾ [الحجر: ٤٧]. وقوله تعالى: ﴿سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ﴾ [الغاشية: ١٣]. وقوله تعالى: ﴿مُتَّكِنِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضِرٍ وَعَبَقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾ ﴿٧٦﴾ [الرحمن] إلى غير ذلك من الآيات.

وأما خدمهم فقد قال تعالى في ذلك: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [الواقعة]. وقال تعالى في سورة الإنسان، في صفة هؤلاء الغلمان: ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾ [الإنسان: ١٩]، وذكر نعيم أهل الجنة بأبلغ صيغة في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمَمْلَكًا كَبِيرًا﴾ ﴿٥٦﴾ [الإنسان].

والآيات الدالة على أنواع نعيم الجنة وحسنها وكمالها كالظلال والعيون والأنهار وغير ذلك كثيرة جداً ولنكتف منها بما ذكرنا.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾، قد قَدَّمنا الآيات الموضحة؛ لأنَّ خلودهم المذكور لا انقطاع له البتة كقوله تعالى: ﴿عَطَاءٌ غَيْرٌ مَّجْدُوزٌ﴾ [هود: ١٠٨]، أي غير مقطوع، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لِرِزْقِنَا مَا لَكُمْ مِنْ نَفَادٍ﴾ ﴿٥٥﴾ [ص]. وقوله تعالى: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦].

قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٧٦﴾.

قد قَدَّمنا الكلام على هذه الآية الكريمة، ونحوها من الآيات الدالة على أنَّ العمل سبب لدخول الجنة كقوله تعالى: ﴿وَوَدُّوْا أَنْ تَلْكُمُ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣]. وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾ ﴿٧٦﴾ [مريم]. وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿٧٧﴾ [السجد].

وبينَّا أقرب أوجه الجمع بين هذه الآيات الكريمة وما بمعناها، مع قوله ﷺ: «لن يدخل أحدكم عمله الجنة قالوا: ولا أنت يا رسول الله قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل».

وذكرنا في ذلك أن العمل الذي بينت الآيات كونه سبب دخول الجنة هو العمل الذي تقبله الله برحمة منه وفضل. وأن العمل الذي لا يدخل الجنة هو الذي لم يتقبله الله، والله يقول: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَنَادُوا بِمَلِكٍ لِيَفْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَنكِتُونَ﴾ ﴿٧٧﴾. اللام في قوله ﴿لِيَفْضِ﴾؛ لام الدعاء، والظاهر أن المعنى أن مرادهم بذلك سؤال مالك خازن النار، أن يدعو الله لهم بالموت، والدليل على ذلك أمران:

الأول: أنهم لو أرادوا دعاء الله بأنفسهم أن يميتهم لما نادوا: يا مالك، ولما خاطبوه في قولهم: (ربك).

والثاني: أن الله بين في سورة المؤمن، أن أهل النار يطلبون من خزنة النار أن يدعوا الله لهم ليخفف عنهم العذاب، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَتِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ ۖ﴾ [غافر]. وقوله: ﴿يَمِضْ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ أي ليمتنا فنستريح بالموت من العذاب.

ونظيره قوله تعالى: ﴿فَوَكَرَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ [القصص: ١٥]، أي أماته.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿قَالَ إِنَّكُمْ مَكْتُوبُونَ﴾؛ دليل على أنهم لا يجابون إلى الموت، بل يمكثون في النار معذبين إلى غير نهاية.

وقد دل القرآن العظيم على أنهم لا يموتون فيها فيستريحوا بالموت، ولا تفنى هي عنهم، ولا يخفف عنهم عذابها، ولا يخرجون منها.

أما كونهم لا يموتون فيها الذي دل عليه قوله هنا: ﴿قَالَ إِنَّكُمْ مَكْتُوبُونَ﴾؛ فقد دلت عليه آيات من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ مِّن بَآئِ رَبِّهِمْ مَجْرِمًا ۖ إِن لَّهُمْ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُونَ فِيهَا وَلَا يُحْيَىٰ﴾ [طه]. وقوله تعالى: ﴿وَيُنَجِّجُنَّهَا الْأَسْفَىٰ﴾ [الذي يصلَّى النَّارَ الْكَبْرَىٰ] ﴿٧٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يُحْيَىٰ﴾ [الأعلى]، وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا﴾ [فاطر: ٣٦]. وقوله تعالى: ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَحِيتٍ﴾ [إبراهيم: ١٧].

وأما كون النار لا تفنى عنهم، فقد بينه تعالى بقوله: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧]، فمن يدعي أن للنار خبوة نهائية وفناء رد عليه بهذه الآية الكريمة.

وأما كون العذاب لا يخفف عنهم فقد دلت عليه آيات كثيرة جداً كقوله: ﴿وَلَا يُخَفِّفُ عَنْهُمْ مِّنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: ٣٦]. وقوله تعالى: ﴿فَلَا يُخَفِّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ [النحل: ٨٥]، وقوله تعالى: ﴿فَلَنْ نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبا: ٣٠]. وقوله تعالى: ﴿لَا يَفْرُرُ عَنْهُمْ﴾ ... الآية. وقوله: ﴿إِنَّكَ عَذَابُهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [الفرقان: ٦٥] وقوله تعالى: ﴿سَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ [الفرقان: ٧٧] على الأصح في الأخيرين.

وأما كونهم لا يخرجون؛ منها فقد جاء موضحاً في آيات من كتاب الله، كقوله تعالى في البقرة: ﴿كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧]. وقوله تعالى في المائدة: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُخْرَجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِمٌ﴾ [المائدة]. وقوله تعالى في الحج: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا﴾ ... الآية [الحج: ٢٢]. وقوله تعالى في السجدة: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾ [السجدة: ٢٠]، وقوله تعالى في الجاثية: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْعَبُونَ﴾ [الجاثية: ٣٥]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقد أوضحنا هذا المبحث إيضاحاً شافياً في كتابنا (دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب) في سورة الأنعام، في الكلام على قوله تعالى: ﴿قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ

فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴿[الأنعام: ١٢٨]، وفي سورة النبأ في الكلام على قوله تعالى: ﴿لَيُثَبِّرَنَّ فِيهَا أَحْقَابًا ﴿٢٢﴾﴾ [النبأ]، وسنوضحه أيضاً - إن شاء الله - في هذا الكتاب المبارك في الكلام على آية النبأ المذكورة، ونوضح هناك - إن شاء الله - إزالة إشكال يورده الملحدون على الآيات التي فيها إيضاح هذا المبحث. قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جِئْتَكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لَاحِقٌ كُذِّهُونَ ﴿٧٨﴾﴾.

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الشورى، في الكلام على قوله تعالى: ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا نَدَعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ [الشورى: ١٣].

قوله تعالى: ﴿بَلْ وَرُسُلًا لَدَيْهِمْ يَكْتُوبُونَ﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة له في هذه السورة الكريمة، في الكلام على قوله تعالى: ﴿سَتَكْتُبُ شَهَادَتَهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾، وأكثرنا من الآيات الموضحة لذلك في سورة مريم في الكلام على قوله تعالى: ﴿كَأَلَّا سَتَكْتُبُ مَا يَقُولُ﴾... الآية [مريم: ٧٩].

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾. اختلف العلماء في معنى ﴿إِنَّ﴾ في هذه الآية.

فقالت جماعة من أهل العلم: إنها شرطية، واختاره غير واحد، وممن اختاره ابن جرير الطبري، والذين قالوا إنها شرطية اختلفوا في المراد بقوله: ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾. فقال بعضهم: فأنا أول العابدين لذلك الولد.

وقال بعضهم: فأنا أول العابدين لله على فرض أن له ولداً. وقال بعضهم: فأنا أول العابدين لله جازمين بأنه لا يمكن أن يكون له ولد. وقالت جماعة آخرون: إن لفظه ﴿إِنَّ﴾ في الآية نافية. والمعنى: ما كان لله ولد، وعلى القول بأنها نافية ففي معنى قوله: ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ ثلاثة أوجه:

الأول: وهو أقربها أن المعنى ما كان لله ولد فأنا أول العابدين لله، المنزهين له عن الولد، وعن كل ما لا يليق بكماله، وجلاله.

والثاني: أن معنى قوله: ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾؛ أي الآنفين المستنكفين من ذلك يعني القول الباطل المفترى على ربنا الذي هو ادعاء الولد له. والعرب تقول: عبد بكسر الباء يعبد بفتحها فهو عبد بفتح فكسر على القياس، وعابد أيضاً سماعاً، إذا اشتدت أنفته واستكافه وغضبه، ومنه قول الفرزدق:

أولئك قومي إن هجوني هجوتهم وأعبد أن أهجو كليبا بدارم

فقوله: وأعبد، يعني آنف وأستنكف. ومنه أيضاً قول الآخر:

متى ما يشأ ذو الود يصرم خليله ويعبد عليه لا محالة ظالماً

وفي قصة عثمان بن عفان رضي الله عنه المشهورة أنه جيء بامرأة من جهينة تزوجت،

فولدت لسته أشهر، فبعث بها عثمان لترجم، اعتقاداً منه أنها كانت حاملاً قبل العقد لولادتها قبل تسعة أشهر، فقال له علي رضي الله عنه: **إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿وَحَمَلُهُ وَفِصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾** [الأحقاف: ١٥]. ويقول - جلّ وعلا -: **﴿وَفِصْلُهُ فِي عَامَيْنِ﴾** [لقمان: ١٤]، فلم يبق عن الفصال من المدة إلا ستة أشهر.

فما عبد عثمان رضي الله عنه أن بعث إليها، لترد ولا ترجم.

ومحل الشاهد من القصة، فوالله: (ما عبد عثمان) أي ما أنف ولا استنكف من الرجوع إلى الحق.

الوجه الثالث: أن المعنى **﴿فَأَنَّا أَوْلُ الْعَالَمِينَ﴾**؛ أي الجاحدين النافين أن يكون لله ولد، سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً. قال مقيده عفا الله عنه وغفر له: الذي يظهر لي في معنى هذه الآية الكريمة أنه يتعين المصير إلى القول بأن إن نافية، وأن القول بكونها شرطية لا يمكن أن يصح له معنى بحسب وضع اللغة العربية التي نزل بها القرآن وإن قال به جماعة من إجلاء العلماء.

وهناك مسائل عزز بها الشيخ رأيه يرجع من آراء الوقوف عليها إلى الأصل.

قوله تعالى: **﴿سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾** (٨٢).

قد قدّمنا معنى لفظه سبحانه، وما تدل عليه من تنزيه الله عن كل ما لا يليق بكماله وجلاله، وإعراب لفظه سبحانه مع بعض الشواهد العربية في أول سورة بني إسرائيل.

ولما قال تعالى: **﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ﴾**... الآية. نزه نفسه تنزيهاً تاماً عما يصفونه به من نسبة الولد إليه مبيناً أن رب السماوات والأرض، ورب العرش، جدير بالتنزيه عن الولد، وعن كل ما لا يليق بكماله وجلاله.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة، من أنه لما ذكر وصف الكفار له بما لا يليق به، نزه نفسه عن ذلك، معلماً خلقه في كتابه أن ينزهه عن كل ما لا يليق به، جاء مثله موضحاً في آيات كثيرة كقوله تعالى: **﴿مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلِيٍّ﴾**. إلى قوله تعالى: **﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾** (٨١) **﴿عَلِيمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَلَّنَ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾** (٨٢) [المؤمنون]. وقوله تعالى: **﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَا بُعْثُوا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾** (٨٣) **﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾** [الإسراء]. وقوله تعالى: **﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾** [الأنبياء]. وقوله تعالى: **﴿سُبْحَانَكَ أَنْ يَكُونَ لَكَ وَلَدٌ لَّهُمَا مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾** [النساء: ١٧١]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: **﴿فَدَرَهُمْ مَحْضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾** (٨٢).

قد قدّمنا الآيات الموضحة له في سورة الحجر، في الكلام على قوله تعالى: **﴿ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ﴾**... الآية.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ﴾ .

قد قدّمنا الآيات الموضحة له في أول سورة الأنعام في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ . . . الآية [الأنعام: ٣].

قوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ . قد بيّنا الآيات الموضحة في سورة الأنعام، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ الآية [الأنعام: ٥٩].

وفي الأعراف، في الكلام على قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّبُهَا لَوْفَهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧]، وفي غير ذلك من المواضع.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفْعَةَ﴾ . . . الآية .

قد قدّمنا الآيات الموضحة له في سورة البقرة، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفْعَةٌ﴾ . . . الآية [البقرة: ٤٨]. وفي غير ذلك من المواضع.

قوله تعالى: ﴿وَلَكِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ ﴿٧٧﴾ .

قد قدّمنا الآيات الموضحة له بكثرة، في سورة بني إسرائيل، في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

قوله تعالى: ﴿وَقِيلَهُ يَا قَوْمِ إِنَّا هَنَّا قَوْمٌ لَا يُمِنُونَ﴾ ﴿٨٨﴾ .

قرأ هذا الحرف نافع، وابن كثير، وابن عامر، وأبو عمرو، والكسائي (وقيل له) بفتح اللام وضم الهاء، وقرأه عاصم وحمة: ﴿وَقِيلَهُ﴾ بكسر اللام والهاء.

قال بعض العلماء: إعرابه بأنه عطف محل على الساعة؛ لأن قوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾؛ مصدر مضاف إلى مفعوله.

فلفظ الساعة مجرور لفظاً بالإضافة، منصوب محلاً بالمفعولية، وما كان كذلك جاز في تابعه النصب نظراً إلى المحل، والخفض نظراً إلى اللفظ، كما قال في الخلاصة:

وجر ما يتبع ما جر ومن راعى في الاتباع المحل فحسن
وقال في نظيره في الوصف:

واخفض أو نصب تابع الذي انخفض كمتبغى جاء ومالاً من نهض
وقال بعضهم: هو معطوف على (سرهم).

وعليه فالمعنى: أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم، وقيله يا رب، الآية.
وقال بعضهم: هو منصوب على أنه مفعول مطلق.

أي، وقال: «قيله» وهو بمعنى قوله إلا أن القاف لما كسرت، أبدلت الواو ياء لمجانسة الكسرة، قالوا: ونظير هذا الإعراب قول كعب بن زهير:

تمشي الوشاة جنابيهما وقيلهم إنك يا ابن أبي سلمى لمقتول

أي ويقولون: قيلهم.

وقال بعضهم: هو منصوب بيعلم محذوفة؛ لأن العطف الذي ذكرنا على قوله: سرهم، والعطف على الساعة يقال فيه إنه يقتضي الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه بما لا يصلح لكونه اعتراضاً، وتقدير الناصب إذا دل المقام عليه لا إشكال فيه، كما قال في الخلاصة:

ويحذف الناصبها إن علما وقد يكون حذفه ملتزماً

وأما على قراءة الخفض، فهو معطوف على الساعة، أي وعنده علم الساعة، وعلم قيله يا رب.

واختار الزمخشري أنه مخفوض بالقسم، ولا يخفى بعده كما نبه عليه أبو حيان.

والتحقيق أن الضمير في قيله للنبي ﷺ.

والدليل على ذلك أن قوله بعد: ﴿فَأَصْحَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَّمَ﴾ خطاب له ﷺ بلا نزاع، فادعاء أن الضمير في قيله لعيسى، لا دليل عليه ولا وجه له.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة، من شكواه ﷺ إلى ربه عدم إيمان قومه، جاء موضعاً في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان]، وذكر مثله عن موسى في قوله تعالى في الدخان: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنْ هَبْ لَاءَ قَوْمٍ مُّجْرِمُونَ﴾ [الدخان]، وعن نوح في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ [نوح]، إلى آخر الآيات.

قوله تعالى: ﴿فَأَصْحَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَّمَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [٨٩]. قرأ هذا الحرف ابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم، وحزمة، والكسائي: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٩] بياء الغيبة. وقرأ نافع وابن عامر: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ بقاء الخطاب، وهذه الآية الكريمة تضمنت، ثلاثة أمور:

الأول: أمره ﷺ بالصفح عن الكفار.

والثاني: أن يقول لهم سلام.

والثالث: تهديد الكفار، بأنهم سيعلمون حقيقة الأمر وصحة ما يوعد به الكافر من عذاب النار.

وهذه الأمور الثلاثة جاءت موضحة في غير هذا الموضع: كقوله تعالى في الأول: ﴿وَأِنَّ السَّاعَةَ لَأَتِيَةٌ فَاصْصَحْ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ [الحجر: ٨٥]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطْعِمْ الْكٰفِرِينَ وَالْمُنٰفِقِينَ وَدَعْ أَذُنَهُمْ﴾ [الأحزاب: ٤٨].

والصفح: الإعراض عن المؤاخذة بالذنب، قال بعضهم: وهو أبلغ من العفو.

قالوا: لأنّ الصّفح أصله مشتق من صفحة العنق، فكأنه يولي المذنب بصفحة عنقه معرضاً عن عتابه فما فوقه.

وأما الأمر الثاني، فقد بين تعالى أنه هو شأن عباده الطيبين .
ومعلوم أنه ﷺ سيدهم كما قال تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَمًا ۗ﴾ [الفرقان]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلُوا لِلْغَوْا أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْنِي الْجَهِيلِينَ ۗ﴾ [القصص]. وقال عن إبراهيم إنه قال له أبوه: ﴿لَيْنَ لَمَ تَنَتَهُ لَأَرْجَمَنَّكَ وَاهْجُرِّيْ مَلِيًّا ۗ﴾ [مريم: ٤٦] قال له: ﴿سَلَمٌ عَلَيْكَ ۗ﴾ [مريم: ٤٧].

ومعنى السلام في الآيات المذكورة، إخبارهم بسلامة الكفار من أذاهم، ومن مجازاتهم لهم بالسوء، أي سلمتم منا لا نسا فهكم، ولا نعاملكم بمثل ما تعاملونا .
وأما الأمر الثالث الذي هو تهديد الكفار بأنهم سيعلمون الحقيقة، قد جاء موضحاً في آيات كتاب الله كقوله تعالى: ﴿وَلَنَعْلَمَنَّ نِبَاهُ بَعْدَ حِينٍ ۗ﴾ [ص]. وقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ نَبِيٍّ مُّسْتَفَرٍّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۗ﴾ [الأنعام]. وقوله: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۗ﴾ [البقرة: ٤، ٥]. وقوله تعالى: ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۗ﴾ [التكاثر]. وقوله تعالى: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۗ﴾ [التكاثر]. وقوله تعالى: ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۗ﴾ [التكاثر]. إلى غير ذلك من الآيات .
وكثير من أهل العلم يقول: إن قوله تعالى: ﴿فَأَصْفَحْ عَنْهُمْ ۗ﴾، وما في معناه منسوخ بآيات السيف، وجماعات من المحققين يقولون هو ليس بمنسوخ .
والقتال في المحل الذي يجب فيه القتال، والصفح عن الجهلة والإعراض عنهم وصف كريم، وأدب سماوي، لا يتعارض مع ذلك، والعلم عند الله تعالى .



بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الدخان

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَّكَةٍ ۗ﴾ .

أبهم تعالى هذه الليلة المباركة هنا، ولكنه بيّن أنها هي ليلة القدر في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۗ﴾ [القدر: ١]، وبين كونها ﴿مُبَرَّكَةً ۗ﴾ المذكورة هنا في قوله تعالى: ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۗ﴾ [القدر]، إلى آخر السورة .
فقوله: ﴿فِي لَيْلَةٍ مُّبَرَّكَةٍ ۗ﴾؛ أي كثيرة البركات والخيرات . ولا شك أن ليلة هي خير من ألف شهر، إلى آخر الصفات التي وصفت بها في سورة القدر، كثيرة البركات والخيرات جداً .

وقد بيّن تعالى أن هذه الليلة المباركة هي ليلة القدر، التي أنزل فيها القرآن من شهر رمضان، في قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ۗ﴾ [البقرة: ١٨٥].